يوميات مسلم

الدكتور
محمود محمد محمد عمارة
الأستاذ بجامعة الأزهر

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

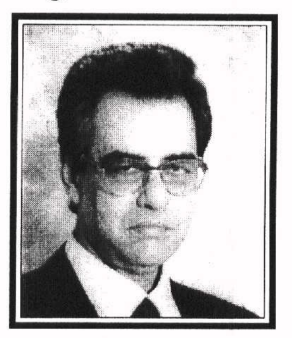
٦٠٥٦١	٢٠٠٢م

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م

مطبعة التوحيد الحديثة بشبين الكوم
ت : ٠٤٨/٣١٥٤٢٠

إهـــداء

إلى السيد المستشار: عـدلى حسـين



المحافظ: الحـافـظ لحـدود اللـه

(لا جعل الله لك إلى لئيم حاجة .

ولا زال لكريم عندك حاجة .

ولا نزع من عبد صالح نعمة .. إلا جعلك سببا لردها عليه .

لقد حفظت ذمتى

وأكرمت وجهى .

وإنما يكرم الكريمَ .. الكريم)

لقد عهدتك محبا للحق .. ولكن : بلا تعرض لأحد . ولا تعريض به .

ففتحت بالحق أبوابا . وسخرت أسبابا . وذللت صعابا ..

وأنت ذلك الرجل الذى رشحه الرشيد للقضاء .. فقال :

أنا أحسن القضاء .. لكنى لست فقيها ..

فقال له الرشيد :

فيك ثلاث خصال:

أنت شريف :

والشرف يمنع أهله من الدنايا

ولك حلم :

والحلم يمنعك من العجلة .. ومن لم يعجل قل خطؤه .

وأنت رجل تشاور :

ومن شاور ... كثر صوابه .

أما الفقه :

فسوف ينضم إليك من تتفقه به

فولاه الرشيد .. فما وجد فيه مطعن

ولقد هرعت إليك فى ساعة العسرة .. فكان صدرك أوسع من الدنيا .. وكنت أكبر من الموقف ..

وما زلت أذكر مشهدك الفريد وأنت تمسك بالقلم فى يدك ..

فكان فى عينى كعصا موسى .. تلقف مايأفكون ..

وكانت يدك بيضاء من غير سوء .. آية تؤكد قدرة الإنسان على أن يكون أكبر من الأكوان !

وكنت أتسمع ذلك الصوت الحبيب الذى تستقبله عبر الهاتف ..

فـأستشعـر جلال الحق .. الذى لن يضيـع بين قـوم كـان الحق لحمـة حيـاتهم وسداها.

لقد كنت أراك فى هذه اللحظة بعين بصرى ..

وأرى الحبيب على الطرف الآخر بعين بصيرتى ..

وأحسست أننى أعيش لحظة . هى فى حياتى خيرها ..

ذلك بأن أكرم اللحظات .. تلك التى ترافق فيها من هو خير منك وأفضل.

وما كنت يا سيدى فاضلا .. بمالك .. ولا بمنصبك .

وإنما كنت .. وستظل فاضلا :

بمروءتك ..

ووفائك ..

ولقد رفعتنى فى باب الدعوة .. فوق ما أستحق ..

ولكننى أقول لك الآن .. وعنك .. ما تستحق ..

إنه ليس العطاء ..

ولكنه الوفاء ..

الوفاء .. فى زمان ضلت الآراء فيه .. وقل الأوفياء ..

وكيف لا أقدم على نفسى .. من قدمنى على نفسه !!

ألم تعـــلم بأنى صـيـرفى

أحـــك الأصدقاء على محك

فمنهم بهرج لا خير فيه

ومنهم من أجوزه .. بشك

وأنت الخالص الذهب المصفى

بتزكيتى .. ومثلك من يزكى

أما بعد :

(فالله يعلم أنك ما خطرت ببالى فى وقت من الأوقات إلا مثل الذكر منك لى محاسن :

تزيدنى صبابة إليك . وضنا بك . واغتباطا بإخائك .

ولعل الأيام أن تسهل إلى برك . ومعاوضتك ببعض ما سلف لك .

وأحب ما أوثرك به . وأقضى به واجب حقك على :

تنبيهك على عظيم مالله عندك .. وحثك على الازدياد مما يزيدك .)

جعل الله نعمته عليك مذكرة لك به سبحانه .

ومعينة لك على طاعته .

وما زوى عنك من شئ .. إلا جعل فراغه طاعة منك له سبحانه وتعالى .

د/ محمود محمد محمد عمارة

من مفكــرتى

فى الأول من شــهـر يونيـة ٢٠٠١ كـان المفـروض أن أكـون فى «مـاليـزيا» . استجابة لدعوة كريمة من مؤسسة إسلامية هناك.

وفجأة .. وقبل موعد السفر بيومين . أبلغت بإرجاء الرحلة إلى أجل غير مسمى .

وكانت المفاجأة العجيبة هى :

أنه - وفى يوم الأحد ٢ يونيه من نفس العام - كان المفروض أن أكون فى «كوالالمبور» العاصمة .. ولكن شاء القدر الأعلى أن تحدث المفاجأة التى لم تكن تخطر على بال بأى حال من الأحوال .

مفاجأة .. قلبت كل حساباتى ..

وبعد مشاعر الأنس برفاق المؤتمر .. والذين كانوا من جنسيات متعددة .. إذا بى أصارع أفكاراً جديدة بدأت تغزونى .. وتحتل كيانى .

وبدأ نشاط من نوع غير مسبوق فى حياتى ..

بدأت الإجراءات القانونية .. فى محاولة لإحباط مؤامرة لتضليل العدالة الساهرة ..

وفى هذا الوقت :

اعتل المزاج .. وتجمد الفكر .. وتوقف القلم .. واللسان .. وانسحبت من كل البرامج الإذاعية التى كنت أبث أفكارى من خلالها .

وبعدما كنت أذهب إلى مبنى الإذاعة .. متنقلا من القناة الأولى .. إلى القناة الثانية .. ومن البرنامج العام .. إلى إذاعة القرآن الكريم ..

بعد هذا .. تغير الجدول اليومى .. حيث كانت تنقلاتى من إدارة إلى إدارة .. ومن محام .. إلى محام !!

وإذا فكرت فى شىء .. كان فى شىء واحد هو : السجن !!

الذى هو كما قيل :

مقبرة الأحياء .

وشماتة الأعداء .

وامتحان الأصدقاء .

وقلت لمن كان يكثر لومى على هذا التغير فى مزاجى :

وقالوا :

قــد جــننت فــقلــت كــلا ... وربى ماجننت . ولا انتشيت

ولكنى ظلمت فكدت أبكى ... مــن الظلم المبيــت أو بكيت

فــإن المــاء ماء أبى وجــدى ... وبئــرى أو حفرت و أو طويت

ثم .. بدأ ما يشبه الذبول فى الصحة العامة .. وكنت أتمثل فى قول « بشار »

لم يطل ليلى . ولكــن لــم أنــم ... ونفى عنى الكرى طيف ألم

خففى يا هــند عنى .. واعلمى ... أننى ياهــند .. من لحم ودم

إن فى بـردى جسمــا نــاحــلا ... لو تــوكأت عليــه لانهدم

وإذ يكذب الرواة .. بشارا .. لأن جسـمـه كان ضـخـمـا .. لو توكـأ عليـه « جبل» ما انهدم ! . لكن أبياته تصدق على .. لاعليه ..

بل إن الوهم الضـاغط .. كـان يذكـرنى بما هو أدل فى غـاية الضـعف . وذلك قول الشاعر النحيل لممدوحه :

لولا مخاطبتى إياك .. لم ترنى !

وأحيانا .. وأنا أتقلب على فراشى مسهدا .. أذكر ما قاله « شوقى» :

سألتنى عن النهـار جفـــونى

رحـم اللـه ياجفـونى النهـــارا

قلن : نبكيه ؟ قلت هاتى دموعا

قلن : حبذا .. قلت : هاتى اصطبارا

ولقد كنت أقرأ من قبل لمن جفاهم النوم .. وأحمد الله تعالى أن لم أكن واحداً منهم ..

فلما دخلت نفسى الأفق .. عادت إلى ذاكرتى نجواهم بمثل قول أحدهم :

يا ليـــل .. بـــل يا أبـــد　　　أنـــائـم عنـــدك غـــد ؟!

وقد كان المسهدون يبحثون عن هذا "الغد" الذى طال انتظاره :

وذلك قول « مهيار » :

وياصاحبى : أين وجه الصباح

وأين غد ؟ صف لعينى غدا

أسدوا مسارب ليـل العـراق

أم صبغوا وجهـه أســودا ؟!

ومن هؤلاء : « العباس بن الأحنف » والذى قال :

أيها الراقدون حولى : أعينو

نى .. على الليل .. حسبة وائتجارا

حدثونى عـن النهـار حديـثا

أو صفوه .. فقد نسيت النهـارا !

وكنت أحس بنعمة « النوم » ونعمة الأمان .. ولكن بعد فوات الأوان ..

ياليـل طـل .. أو لا تطـــل   لابــــد لى أن أسهـــرك

لو كـــــان عنــــــدى قمرى   مابــــت أرعـــى قمـــرك !

وما كان هناك من قمر أرعاه .. وإنما هو العذاب من وراء تدبير الصحاب .. والذى فرض على ما فرض على «الخنساء» التى قالت :

أرعى النجوم .. وما كلفت رعيتها

إنه الأسى يسلب النجوم .. جمالها .. لتبدو كأنها الرجوم ..

والسبب هو :

النعم الزائلة .. والبلايا النازلة !

أخـــلاق الـقــرية

لقد أسس لهم مسجدا . وبنى لهم معهدا .. ومن الخدمات فى غسق الليل ما كان أعظم وأعظم ومع ذلك : فالماكرون : يتآمرون عليه .. والأصدقاء يجلسون على كراسى المتفرجين !!

الأحرار الأبرار فى القرية هم الذين لا يقيمون الصلاة .. ولا يؤتون الزكاة !! أما العلماء : فمكانهم هناك .. فى غيابات السجون !

ولا بأس . فالناس أبناء عصرهم :

فقد تسمع اليوم من يهتف باسم زعيم مات .. بعدما اغتصبت الأرض فى عهده ..

ولا تكاد تسمع هتافا باسم هذا الزعيم الذى رد إلينا هذه الأرض بحكمته !

وهكذا ليس كل من يرميك بالحجارة تكون له معك قضية !

إنه الحقد ليس إلا .

إنها قصة الزميل الذى أحبه الجميع .. مع أنه كان يرسب كل عام ..

أما الزميل الذى كان طليعة المجموعة .. فلم يجد من يثنى عليه ..

إنها العلة القديمة الجديدة :

فما من صاحب نعمة إلا وجدت له حاسدا ..

ولو كان أقوم من الرمح .. لوجدت له غامزاً ! .. وقد يكون لبنيه من حزنه نصيب :

وتراث الأديب فى الشرق : حزن لبنيه وثروة للرواة

هذا المنطق المعكوس يذكرنى بما قاله واحد من شيوخنا :

لا تقل : اللهم حول حالنا إلى أحسن حال ..

لماذا ؟

لأن واقعنا الملوث .. لا يبشر بهذا التحول ..

ذلك بأنه تفاؤل لا رصيد له فى الواقع ..

وقصاراك أن تقول :

اللهم حول حالنا إلى أحسن منه ..

ويكفيك هذا .. أما أمنية (أحسن حال)

فهذه محال !!

ومن تعاجيب الليالى .. أن «اسرائيل» تنفق مليونا من الدولارات ..

ثمنا للحصول على «رفات» جندى اسرائيلى .. مات فى حرب أكتوبر ..

ليرقد هناك فى أرضها ..

أما نحن : فنحاول - بالفعل أو بالصمت - نحاول قتل « الحى» الذى كان سببا فى حياتهم .. لماذا ؟ لأنه كان بأخلاقه حجة عليهم !

وكان الأمر على ما قيل :

وإن ترحلت عن قوم وقد قدروا

ألا تفارقهم .. فالراحلون همو

أجل .. إنهم الراحلون .. وإن كانت لهم جثث ضخمة تزحم الجو ..

أما الأوفياء .. فهم الأحياء .. حتى ولو رحلوا عن الدنيا ..

وكانت نهاية حياتهم هى ما قرره شقيق سئل عن سبب موت أخيه فقال :

كانت حياته .. سبب موته ؟

لقد كانت حياته حافلة بجلائل الأعمال .. وهى التى أكبت عليه الحاسدين .. فقتلوه ..

قتلوه .. ولكن بغير سكين !

وكيف طوعت لهم أنفسهم أن يقتلوه مع أنه : ليس كل من يلقى فى سلة المهملات يكون مستغنى عنه ؟!

البئر والنهر

إنها قصة البئر .. مع النهر :

لقد قرر أهل القرية أن يذهبوا إلى البئر ليأخذوا حظهم من الماء .. ثم تجاهلوا النهر الذى كانوا إليه يقصدون .

وطوع الهوى للبئر أن يقول للنهر مزهوا :

أيها النهر :

إن صوتك صاخب .. وماؤك عكر . والتيار فيك شديد خطر !!

لماذا لا تكون مثلى فى الهدوء .. والعمق .. والثبات .. والنقاء ؟!

ويستمر البئر فى زهوه قائلا :

إننى أتطلع إلى السماء الزرقاء : من فوهتى المستديرة . طول اليوم .. أبحث عن أسرار الكون ..

وهذه هى الحياة .. كما يجب أن تكون .

وسكت النهر .. ولم ينطق بكلمة واحدة .

ولكن مياهه العكرة .. لم تلبث أن فاضت رويدا .. رويدا .. على الشاطئين..

ثم اندفعت بصوت صاخب .. حتى صارت طوفانا ..

ثم حطمت كل الحواجز .. حتى وصلت الأمواج الغاضبة إلى البئر ..

فغمرها .. ثم أخفاها تحت أمواجه العاتية

وهكذا يتحول «البئر» إلى فيلسوف .. يحاول أن يلقن أستاذه « النهر » فى فن الحياة دروسا .. منتهيا بإعلان انفصاله عنه .. وحقه الأوحد فى أن يبقى .. وعلى النهر العفاء بهذا الجفاء ..

وليس للنهر من ذنب إلا أنه ولى نعمته ..

وكأنما شـرف الشـريف إذا سمـا

جرم جناه على الوضيع الأصغر

ولكن .. إذا فـرضت المعـركـة على النبـلاء فـرضـا .. فـلا بأس أن يخـاطبـوا المتجاهلين - ولو لحظة - باللغة التى يفهمونها .. والتى عناها الشاعر بقوله :

ولما رأيت الجهل فى الناس فاشيا

تجاهلت .. حتى ظن أنى جاهل

إن بعض النـاس لا يكتــفى بـأنه يـكذب عليك .. بـل إنه ليـكذبك .. وأنت المحق..

إن جبلته لا تطيق رؤية المحق .. ولا الشعور بجمال الحق ..

فهى لا تنسجم معه .. ولا مع أهله ..

وأذكى من هؤلاء إبليس :

لقد احتاط لنفسه .. فنأى بها عن تهمة الكذب !!

من حيث علمـه بأنـه - مهـما اجتـهد فى اغواء البشـر فسوف تبقى منهم ثلة تفلت من قبضته .. فاستثناهم حتى لا يكون إيمانهم من بعد شاهدا على كذبه .

وذلك قوله تعالى :

﴿ قـال أرأيتك هذا الذى كـرمت على . لئن أخرتن إلى يوم القـيـامة لأحتنكن ذريته .. إلا قليلا ﴾ الإسراء -٦٢ .

وقوله تعالى :

﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين..إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ ص ٨٠-٨١

الأصـــدقـــاء الطـيـبـــون

كنت أتلقى مكالمات الأصدقاء .. والتلاميذ الأوفياء ..

وكانت نيتى معقودة ألا أخبرهم بما أعانيه .. وما ألاقيه ..

لكن المتكلم قد يحملنى مسئولية عمل .. قضاؤه مستحيل . فأجدنى مضطراً إلى إعلامه بقضيتى .. وتلك كانت مصيبتى ؟! وكيف ؟

لقد جاءت الردود كأنها قذائف .. تنقض عليك .. ومن منطقة الأمان !!

وقد تكون فى هذه اللحظة مستقبلا نسمة من نسمات الأمل فى نصر الله والفتح ..

ولكنك تفاجأ بمن يقول لك :

أعوذ بالله !!

عوضك على الله .

إن هذا لهو البلاء المبين .

هذا حكم بالإعدام ..

وكان هناك من أيقن بأننى مت فعلا .. وها هو ذا يكبر على أربعا .. حين يرد على ما سمع قائلا :

إنا لله وإنا إليه راجعون !!

وكنت أتذكر قول الشاعر :

عوى الذئب .. فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصوت إنسان فكدت أطير !!

وفراراً من هؤلاء النادبين من المخلصين .. قررت العزلة أجتر فيها أفكارى.. وأحمى فيها سمعى مما يقول هؤلاء الأصدقاء !

مـــن ثمـــرات العـــزلـــة

وأحياناً تكون العزلة .. هى الدواء :

وذلك بأن للحياة مشكلاتها .. وللمشكلات ضغوطها .. وتكاليفها القاسية..

وكما يقول البصراء :

إن للآلة الحاسبة فى يدك قانونها .. ومن قوانينها :

إنهاء العملية الحسابية السابقة .. قبل أن تشرع فى العملية الجديدة ..

وإن لم تفعل ذلك .. اختلطت المعلومات .. وتشابكت الأفكار .. وضاع من قدميك الطريق ..

ويتم ذلك - على المستوى البشرى - بما يلى :

بالعودة إلى النفس ..

ثم التفكير بهدوء .. بعد التخلص من صخب الشارع ..

وسوف يمنحنا التفكير الهادئ - كما يقول المجربون - :

التفريق بين الممكن .. والمستحيل .. لنعرض طاقاتنا لإنجاز الأول .. وعدم تبديدها فيما لا يفيد .

وذلك .. كما يلجأ الجندى المطارد إلى مخبئه :

إن هجوم العدو بكلكله عليه .. سوف يفقده سلامة التفكير ..

فإذا عاد إلى خندقه فكر بهدوء وروية .. فرأى الحق حقا .. والباطل باطلا ..

إننا نستطيع أن نرتفع فوق همومنا . بما اخترعه الطب الحديث من مهدئات ..

ولكن وظيفتها كما يشير اسمها .. التهدئة فقط .. ولا يدخل فى مهمتها : محو همومنا من قلوبنا ..

إنها فقط حاجز .. يمنعنا من رؤية همومنا .. أو الإحساس بها .. ولكن هذا الحاجز سوف يسقط فى يوم لا ريب فيه .

سوف تتيح لك الخلوة : تقدير أسوأ الاحتمالات ..

ثم ترويض النفس على قبولها ..

ويعنى قبولها : التحرر من الخوف ..

والتحرر من الخوف يعنى : إطلاق الملكات لتعمل .. وتتقدم

وفى العزلة .. تتسلل إليك المعانى كأنها ضوء الفجر .. تغالب بها ليلا كأنه أمواج البحر ..

وإنها معان : لولاها .. لفقدت الحياة معناها !

جبران فى عزلته

ولقد جرب الشاعر « جبران» هذه العزلة .. ففاضت عليه بألطف المعانى :

قال يوما .. يحكى تجربة من تجاربه :

جلست وسط الحقل أناجى الطبيعة .. فى تلك الساعة المملوءة طهرا وجمالا .. وبينما كان الإنسان مستتراً طى الكرى يحلم ..

كنت متوسدا الأعشاب .. أستفسر عن كل ما أرى عن حقيقته .. وعن غوامض أسراره :

مر النسيم بين الأغصان .. متنهداً تنهد يتيم بائس .. فسألته :

لماذا تتنهد يا أيها النسيم ..

فأجاب .. لأننى ذاهب نحو المدينة .. وسأحرم من حرارة الشمس إلى حيث تتعلق بأذيالى النقية ميكروبات الأرض .. وتتشبث بى أنفاس البشر السامة ..

من أجل ذلك تراني حزيناً .

ثم تلفت نحو الأزهار فوجدتها تذر في من عيونها قطرات الندى دمعا .. فسألتها لماذا تبكين ؟

فأجابت واحدة :

نبكي .. لأن الإنسان سوف يأتي . ويقطع أعناقنا .

ويذهب بنا نحو المدينة . ثم يبيعنا كالعبيد . ونحن حرائر ..

وإذا ماجاء المساء وذبلنا .. رمانا تحت قدميه

كيف لا نبكي .. ويد الإنسان القاسية سوف تفصلنا عن وطننا : الحق ؟

وسمعت **الجدول** ينوح .. كأنه الثكلى . فسألته :

لماذا تنوح أيها الجدول العذب .. فأجاب :

لأنني سائر نحو المدينة .. حيث الإنسان يحتقرني .

ويستغلني لحمل أدرانه ..

كيف لا أنوح .. وعن قريب ستصبح نقاوتي وزرا . وطهارتي قذرا ..

ثم أصغيت .. فسمعت **الطيور** تغني نشيدا محزنا .. يحاكي الندب .. فسألتها : لماذا تندبين أيتها الطيور الجميلة ؟

فأجاب عصفور يرفرف فوق شجرة :

سوف يأتي ابن آدم . يحمل في يده آلة جهنمية .. تفتك بنا فتك المنجل بالزرع .

وما تسمعه هو : أن بعضنا يودع بعضا .. لأننا لا ندري من منا يتملص من القدر المحتوم .

كيف لا نندب والموت يتبعنا حيثما طرنا .

وطلعت الشمس من وراء الجبل .. وتوجت رءوس الأشجار بأكاليل ذهبية .. وأنا أسأل ذاتى :

لماذا يهدم الإنسان ما تبنى الطبيعة ؟

ونحن نقول :

لماذا يهدم الإنسان .. أخاه الإنسان ؟

إن جبران يتحدث عن الذين يهدمون الطبيعة ..

لكننا نتعجب ممن يهدمون الشريعة ؟

يهدمونها بهدم حملتها .. والمبشرين بها ..

هؤلاء الدعاة الذين يعطون .. ولكنهم لا يسلمون !

وبخاصة من الذين تغرك منهم ابتسامة الليث ..

الذى ينقض على الفريسة متى أمكنه ذلك ..

هويتك .. إذ عينى عليها غشاوة

فلما انجلت .. قطعت نفسى ألومها

وهكذا الزمان :

إن الزمان الذى ما زال يضحكنا

أنسا بقربهمو .. قد بات يبكينا

ثم صار الأمر على ما قيل :

وكنا وليلى فى صعود من الهوى

فلما توافينا .. ثبتّ .. وزلت

وهكذا تشتعل قلوب الأوفياء نارا .. بينما الغافلون لا يشعرون .. لا يشعرون بسوء العقبى .. وإن أفلتوا من الجزاء فى الدنيا ..

ولقد ثبت أنه :

من أذل مسلم أمامه وهو قادر على نصرته .. أذله الله تعالى على رءوس الخلائق يوم القيامة.

أجل :

١- أذله .. مهما كان مركزه فى الدنيا .

شريطة أن يكون قادرا..

٢- والتعبير بالشرط يؤكد ضرورة الجزاء.

٣- والبناء للمجهول يعنى :

من أية جهة جاء الإذلال ..

٤- وسوف يكون ذلك يوم القيامة ..

وليس فقط على رءوس «الناس»

وإنما على رءوس «الخلائق» جميعا

عـنـدما يـسـتنسـر البـغـاث

وفى هذا الجـو العكر .. تنقلب الأوضـاع .. ليـختـلط الحـابل بالنابـل .. وتلد الأمـة ربتـهـا .. ويتطاول الرعـاع فى البنيـان .. بعـدما أطفـئت الأنـوار .. فـتحـرك السراق.. وانزوى الأشراف ، وهنا يستنسر البغاث :

وبغـاث الطيـر : شـرارها .. ومـا لا يصلح للصيـد منهـا .. وفى اللحظة التى يخيم فيـها الظلام .. تتراجع النسـور .. ثم يخلو الجـو للبغاث الذى يحـاول أن يكون نسرا .

وعندئذ يصير الجو على مايقول الشاعر :

ومن يثنى الأصاغر عن مراد

وقـــد جلس الأكـــابر فـى الزوايا

وإنّ ترفّع الوضعاء يوما

على الأشـراف .. من إحـدى البـلايا

إذا استوت الأسافل والأعالى

فـــقـــد طابت منادمـــة المنايا

وقـد يفـرض عـليك يومـا أن تعـيش فى هذا الجـو المعـتم.. والتى أراده إخـوة يوسف حين جاءوا أباهم.. عشاء .. فى العتمة .. حتى لاتتكشف دموع التماسيح..

وماذا يصنع العاقل فى هذا البلاء المبين :

حين تضطرب الثوابت .. وتختل المسلمات .. وتشوه الحقائق .

وتكون الغلبة لمن كان أكثر صيـاحا وجلبة ! .. ويضعف الحق حين غـاب من يعبر عنه؟!

حين يكون للوضعاء تدليس هو من تلبيس إبليس ؟

حين تكره «الغربان» بياض النسور ؟!

وقد تقول عندئذ كلاما فيه الكفاية .. ولكن أين من يطلب الهداية ؟!

وأية عزة ترجوها ممن لا عزة عنده أساسا ؟!

وأية نصرة تتمناها .. وكل من حولك أذلاء .. لايطيقون أن يروا بينهم عزيزا ؟!

حلاوة الصبر

وإذا كنا نتحمل مرارة الدواء رغبة فى صحة الجسم .. فأجدر بنا أن نتحمل مرارة الصبر .. تحقيقا لصحة الجسم والروح معا ..

النصر مع الصبر

نجح الواشون النمامون فى إثارة القاضى على العالم الوقور .. وذلك عندما قالوا له :

إن الشيخ يستمع إلى المغنيات .. ويستحسن غناءهن !

ولما حضر العالم ليشهد عند القاضى «ابن شبرمه» رد هذا القاضى شهادته قائلا له :

بلغنى أن جارية غنت فقلت لها : أحسنت ..

وجاء نصر الله والفتح عندما رد الشيخ عن نفسه قائلا للقاضى :

قلت لها ذلك عندما ابتدأت .. أو حين سكتت ؟ فقال القاضى :

حين سكتت .. قال العالم : إنما استحسنت سكوتها أيها القاضى !!

واجبنـــا

وواجب الأبرياء ألا يمكنوا الغم منهم .. فيحققوا بذلك أمنية أعدائهم .. وعليهم أن يعملوا لترويض الأحزان .. ومصادقتها والتواصل مع الحياة ونحن نطوى الصدور على بصماتها .

لقد كان من تقاليد البحارة حين يلتقون بحوت كبير فى البحر أن يلقوا إليه بقارب صغير فارغ لينشغل بمهاجمته عن مهاجمة السفينة الأصلية حتى لايغرقها .. ثم يحاولون - خلال انشغاله بملاطمة القارب الفارغ - صيده أو النجاة بسفينتهم بعيدا عنه.. وكذلك ينبغى أن نفعل نحن أيضا مع حوت أحزاننا وهمومنا لكيلا يلتهمنا ويقضى علينا ، أن نشغله عنا .. بالاندماج فى العمل والحياة الاجتماعية والعلاقات العائلية والمجاملات الإنسانية ووسائل الترويح المشروعة عن النفس.. وبالتفكير فى المستقبل .. والعمل من أجله .. وبأن نتذكر حقوق الأعزاء علينا وعمق احتياجهم لنا وواجباتنا تجاههم وبالاهتمام بالأشياء الصغيرة فى الحياة ، التى تصرف أذهاننا ولو للحظات عن التفكير فى أحزاننا ، فالطبيعة ضد الفراغ .. وخلو عقل الإنسان مما يشغله من الأمور الإيجابية ولو للحظات لا يعنى إلا تسلل الهموم والأحزان إليه ، والفارق بين من يعين نفسه على أحزانه .. ومن يعين أحزانه عليه هو الفارق بين من يهلع لقضاء لا راد له ، ويظل مقيما على هذا الهلع بعد فترة الصدمة الأولى وإلى ما لا نهاية .. وبين ما يتصبر ويتجلد أمام القضاء حتى ولو كان قد انفطر قلبه من الحزن الصادق فى البداية فيصبح كمن قال عنه أمير الشعراء أحمد شوقى :

وصابر تلهج الدنيا بنكبته   تخاله من جميل الصبر مانكبا

أما واجب من يحكم فى القضية .. فهو على ما روى عن سقراط أنه شتمه بعض السفهاء.

فاستأذنه تلاميذه فى الرد عليه . فقال :

ليس بحكيم من يأذن فى الشر !!

أهمية العفو :

يقول عز وجل :

﴿ لا يحب الله الجـهـر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما. إن تبـدوا خـيـرا أو تخـفـوه أو تعـفـو عن سـوء فـإن الله كـان عـفـوا قـديرا ﴾ النساء:١٤٨-١٤٩

يريد الله تعالى للبيئة أن تظل نظيفة عفيفة ..

من أجل ذلك حرم سبحانه الجهر بالسوء .. فرارا بهامن هذا الكدر الذى يعكر صفوها .

إلا المظلوم .. فـمن حقـه أن يتـأوه .. وبصـوت مسـمـوع .. معـبرا عن ضـغط الظلم عليه .. وحتى لا يصعّد الظالم عدوانه ..

ومع هذا .. فـيبقى عفو القـادرين سيـد الموقف .. انطلاقـا من قـوله تعـالى .. ختاما للآية الثانية :

(.. فإن الله كان عفوا قديرا)

إنه سبحانه - مع أنه القدير - إلا أنه يعفو ..

ويبقى أن يتخلق المسلم بأخلاق الله تعالى .. فيعفو .. عند المقدرة .

ولاحظ من مـعـانى المبـالغـة هنا : أنه تـعـالى مع قـدرته المطلقة .. إلا أنه عـز وجل يعفو .. عفوا مطلقا.

وإذا كانت النفس أمارة بالسوء .. فإن الصلاة تنهى عن ذلك السوء .. فلنهرع إلى الوضوء .. وإلى الصلاة نستعين بها على كيد النفس..

فهيا .. لنغتسل فى نهر العفو .. حتى نخرج منه أصفى نفسا .. وأنصع جوهرا..

فى الطريق إلى العفو

أهل الحى : أربعة أخماسهم يحبونك..

والخمس : يكرهونك ..

ولكن الخمس - لقلتهم - فهم موحدون : يخططون لك .. ويدبرون بليل ..

بينما الأربعة أخماس جالسون على كراسى المتفرجين .. وقصاراهم أن يبكوا من أجلك .. راضين من النصرة بأدنى مستوياتها وهو : التوجع ..

أما الخمس الكاره :

فأربعة أخماسه .. ضحايا إشاعات كاذبة .. ويبقى الباقى من هذا العدد .. والذى يعد على أصابع القدم -!!- .. يبقى صريح حقد مقيم !

ولا يعنينا هؤلاء الحاقدون .. لأن أنفسهم تكفينا فى الرد عليهم.. فهى تكذبهم فيما يدعون وما يفترون ..

والمهم هو :

هؤلاء الذين خدعوا بقولهم .. حتى نصحح الصور : فى أدمغتهم .. ولاتبقى مشوهة كما يريد الحاقدون .

نبكى على الرجال

ولا نبكى على الأطلال

أين الرجال الذين وقفت معهم فى الليالى السود ؟

لمن أشكو ؟ ليخف بالشكوى ما ألاقيه ؟

إن من قوانين النفس الإنسانية أنه :

ولابد من شكوى إلى ذى مروءة

يسليك .. أو ينجيك .. أو يتوجع

ولم يعد فى القرية من يسلى .. ولا من ينجى .. وإنما الكل يتوجع .. راضيا بأدنى مجهود لا يجد فى بذله عنتا . ولا تضحية.

وقد تسمع من يقول لك :

البراءة فى جيبك ؟!

لكن .. من أين جاءته هذه الثقة .. وليس هناك ما يسوغها فى يده ؟

وكنت أرد عليه :

كانت البراءة من قبل فى يدى . وبكل المقاييس .. لكنهاراحت .. كيف راحت؟ .. لست أدرى !

ولكن الذى أدريه أن بعض الأحباب يحاولون إراحة أنفسهم من هم فرض عليهم.. فيلوحون بهوان الأمر .. ولهذا .. فهو لا يستأهل عناء يبذلونه .. لأن القضية محسومة سلفا !

غير أننى – ويدى فى النار – كنت أكيف الموضوع تكييفا قائما على الحذر

.. وسوء الظن سوءا يعصمنى من الزلل ..

وألحت على فكرة اعتزال القرية .. ولو مرحليا..

وتحقق ماكان من قبل مستحيلا .. وهو ما تنبأ به الشاعر القائل :

نبـــآنى يا نخـلتى حـــلـــوان

واذكرا لى .. من ريب هذا الزمان

واعلما - إن بقيتما - أن نحسا

ســوف يأتيكـما .. فتفتـــرقان

ولكن كيف أصبر على النار ؟

كيف أصبر على فراق قرية .. عشت فيها ليالى وأياما ؟

لقتل بحد السيف أهون موقعا

على النفس .. من قتل بحد فراق

ومع هذا .. فهو الواقع الذى يفرض نفسه الآن :

وكل أخ مفارقـــه أخـــــوه

لعمر أبيك .. إلا الفرقدان[١]

وإذا كـان الفـراق صـعـبـا .. فى حس كل الناس .. فـإنه أصـعب فى حس المتأدبين.. الذين يألفون .. ويؤلفون ..

وعلى ما يقول المتنبى :

خلقت ألوفا : لو رجعت إلى الصبا

لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

(١) الفرقدان : نجمان .

ومع أنني فارقتها .. لم أعد أسكن فيها .. إلا أنها ساكنة «في» لا أنساها..

وعندما تفارق من تهوى .. ترى من الحقائق مالم تكن تراه :

لقد بين البين أنك فقدت شيئا عزيزا .. وهكذا الشمس :

لا يعرف قدرها حتى تغيب !!

وتبقى فى النفس بقية من مرارة .. ممن كان السبب :

لقد ساءنى علمى بخبث السرائر
وإنى على تطهيرها غير قادر

وآلمنى : أنى أخيذ تفكر
بكل رخيص النفس .. خب .. مماكر

وألمح فى هذى الوجوه كوالحا
من اللؤم .. أشباه الوحوش الكواسر

وتوحشنى الأوساط حتى كأننى
أعاشر ناسا أنهضوا من مقابر

تصفحت أعمال الورى فوجدتها
مخازى .. نمطوها بشتى الستائر

وفتشت عما استحدثوا من مناقب
تروج من أطماعهم ومفاخر

فكانت حسانا فى المظاهر خدعة
على أنها كانت قباح المخابر

ولكن الأمل لم يتخل عنى .. حتى فى ضباب الأسى ..

وكنت أقاوم هاتف الأسى بمثل قول الآخر :

تحصن بأفعالك الصالحات

ولا تبخــلن بحســن جــليل

فحسن النساء : جمال الوجوه

وحسن الرجال .. وجوه الجميل

ومما يحسن الرجال أن يفروا من الواقع إلى الصديق الذى لا يَمل .. ولا يُمل : الكتاب :

ليس عندى شئ ألذ من العلم

فــلا أبتـغـــى ســــواه أنيســــا

ما تطعمت لذة العيش حــتى

صـــرت للبــيت والكتـاب جليسا

إنما الذل فى مخالطة الناس ..

فدعــهم .. وعــش عـــزيزاً رئيسا

الأصدقاء .. الألداء

فاجأ الأستاذ تلاميذه : حين قال لهم :

قد يقول الرجل « لا إله إلا الله » .. ثم يدخل بها النار ؟!!

ولما تساءل التلاميذ متعجبين من هذه المعادلة الصعبة .. فاجأهم أيضا بالجواب الذى جاء مقنعا مشبعا !

قال لهم :

تمتهن سمعة رجل فى مجلس أنت حاضره .. ثم تقول :

لا إله إلا الله ..

وليس هذا أوانها .. وإنما واجبك أن تقول للمغتاب هنا :

اتق الله !!

وقد أعاد الدرس المفاجئ كل طالب إلى نفسه .. أو أعاد إليه نفسه ليحاسبها حسابا عسيرا بهذا المقياس ..

كم مرة .. سمعت السهام توجه إلى صديقك الغائب .. ثم دافعت عنه بزجر هذا الذى يأكل لحم أخيه ميتا ؟!

إن قصاراك أن تحوقل .. وأن تستغفر .. أن تخرج من موضوع الدرس .. إلى مالا يفيد صديقك الغائب !

أما أن تدخل طرفا فى القضية فتسكت بشجاعتك نيران العدو المغتاب .. فذلك مالا يدخل لك فى حساب .. ومن ثم فهو مخصوم منك عدلا .

وربما اتصل بى من يبلغنى عن قول فلان فى .. وكنت أقوله له :

أولا :

بالنسبة لى : فمن وضع نفسه موضع التهمة .. فلا يلومن إلا نفسه ..

وبالنسبة للآخرين :

كان عليهم ألا يظنوا بأخيهم سوءا .. متى وجدوا للخير محملا .. ولكنهم لم يفعلوا .. والحال أن بين أيديهم منه « خير غدق » .. يتقلبون فيه .. ولكنهم من ورائه .. يطعنون فيه !

إنهم مصابون بعمى الألوان .. فلا يرون إلا ما تشتهى أنفسهم لا ما يشتهى الحق ..

وهم مغرمون كإخوة لهم من قبل بإشاعة الاتهام .. بالذات .. فى الذين آمنوا..

إنهم يحاولون خرق سفينة الحياة .. وكان الظن أن يحترموا طوق النجاة !

وقلت لمحدثى ما قاله الحكماء :

(قد آن أن تدع ما تسمع .. لما تعلم ..

وألا يكون غيرك فيما يبلغه أوثق من نفسك فيما تعرفه) :

عليك أن تعلم أنه فى الجو الخانق .. يكثر الضباب .. ويقول من شاء ما يشاء ..

وقد ينال العلماء كفل أكبر مما يتقول المتقولون .. وهذا قدرهم ..

أما قدرك أنت فهو أن تكون إيجابيا .. متعاونا مع شيخك على البر والتقوى..

ومن البر والتقوى :

أ - أن تعفى سمعى مما تقول .

ب- وأن تخفف الضغط عن قلبى .. عن هذا الخافق المعذب .. فلم يعد فيه مكان لهمّ جديد ..

وأنت الآن تسمع منهم ما يقولون عنى ..

وفى نفس الوقت تعلم من سيرتى أننى برئ مما يقولون ..

فثق بما تعرفه شخصيا .. ولا تجعل غيرك واثقا بصحة ما يقوله ظلما .

أكثر من ثقتك بصحة ما تعرفه أنت شخصيا ..

لقد طلع الصباح .. فأطفئ القنديلا !

ودع كل من كل شكاء يستقبل الصباح .. بالصياح .. مهيض الجناح .. غير مرشح للتحليق فى الجواء العالية . ولقد كنت « وحيدا » فى جلسة الغيبة .وكانوا كثيراً ..

والكثرة كما يقولون تغلب الشجاعة ..

ولكنها كثرة الغثاء ..

إنهم يحكمون .. وبعد ذلك يبحثون عن الأسباب !

وسيان لديهم : وجدوها أم لم يجدوها ..

فالمهم هو :

تحطيم الرموز العاملة .. حتى تبقى القرية بلا رجال ..

أى : بلا تاريخ !!

ومن الأمور التى تسعدهم أن تعينهم على تدمير « المعبد » فوق رءوسنا

جميعاً..

وسوف تبقى فطرة الإنسان فينا .. هذه الفطرة التى فرضت علينا خيارا واحدا هو :

أن نعيش هموم الناس .. تقربا إلى رب الناس . ولابد للدعاة من الألم .. ولن يذهب هذا الألم .. بجرة قلم ..

وإذا كنا نطمع فى الإنصاف لدى الناس .. فإنما نبحث عن السراب ..

ولله الحمد فيما أعطى ..

ولا حجة عليه - سبحانه - فيما منع

وقل معى : ألا إنها الدنيا : إن أقبلت .. باض الحمام على الوتد .. وإن أدبرت .. بال الحمار على الأسد !

وأذكرك .. وأذكر نفسي بما قيل :

كل إناء بالذى فيه ينضح ..

والحمد لله تعالى (أن كنت القتيل .. ولم تكن القاتل)

كن بلسما إن صار غيرك أرقما   وحلاوة .. إن صار غيرك علقما

وإذا كنا نسمع منهم اليوم مالايرضى من القول .. فطالما سمعنا منهم ما يرضى :

سمع أعرابى قوله تعالى ﴿ الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ التوبة - ٩٧

فانتفض الرجل .

ثم سمع قوله تعالى :

﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ﴾ التوبة : ٩٩

وعندئذ نهض مسرورا وهتف :

الله أكبر .. هجانا .. ثم مدحنا

فهون عليك وجفف دمعك الغالى .. حتى لا يكون الأعرابى أوسع منا صدراً ..

واعتصم بهذه الحقيقة فى هذا البيت :

هجوت زهيرا . ثم إنى مدحته

وما زالت الأشراف تهجى وتمدح

فدعهم وما يشتمون .. فإنما يشتمون أنفسهم :

أما أنا .. فعلى ما يقول الشاعر :

إذا رمت هجوا فى فلان .. تصدنى

خلائق قبح عنه لا تتزحزح

تجاوز حد الهجو .. حتى كأنه

بأقبح ما يهجى به المرء .. يمدح

درس من التاريخ

في مجلس من مجالس المتوكل قال لأبي العيناء :

مابقى أحد فى المجلس إلا هجاك وذمك . فقال :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضبانا على لئامها

هؤلاء اللئام الذين قال فيهم « صفى الدين الحلى »:

لو أن قوة وجهه فى قلبه قنص الأسود .. وجندك الأبطالا

أو كان طول لسانه بيمينه أفنى الكنوز .. وأنقذ الأموالا

ولكننا نتحمل من هذه المسؤلية كفلا .. حين تبسطنا معهم يوما .. فاكتشفوا عيوبنا ..

وقد ننسى الأخطاء التى نبوح بها للآخرين .. لكن الآخرين لا ينسونها ..

فلنكن على حذر من الآن .. حتى لا نخطئ أخطاء تسجل علينا فى كتاب سوف يربط بأعناقنا .. لا ينفك عنها ..

وغدا سوف ينادى الداعى :

العظام النخرة

والأوصال المتفرقة

واللحوم الممزقة

عندما تصير الأرض غير الأرض :

ملساء .. بلا ارتفاع ولا يفاع . ولا انخفاض .. ولا عوج .. خاشعة خاضعة..

تطيع أمر ربها ..

والبشر أيضا يطيعون .. يوم يدعو الداعى إلى شئ نكر ..

يطيعون .. بلا عوج .. ولا تحايل .. ولا التواء ..

ولا تردد ..

فلنجعل الآخرة بين أيدينا .. وحرام أن نترك الدنيا تحجبها عن بصائرنا .

أما بعد :

فيا لله من « ببغاء »

عقله فى أذنيه :

يسمع القول .. وبدل أن يعود إلى عقله يستفتيه ..

يكتفى بمجرد السماع ..

وقد يبتلى العلماء بهذا الصنف الفاجر .. الذين لم يتركوا الذنوب حتى تركتهم الذنوب !

وإنه لبلاء لو تعلمون عظيم .. وهذا قدر العلماء كما قلنا :

(وأشد الناس بلاء الأنبياء ..ثم الأمثل فالأمثل) (١)

لقد ألغى هذا الصنف عقله .. وضميره معا :

ومن أجل ذلك قيل : لا يجديك شيئا أن تقنع خصمك المعاند بحسن نيتك..

إنه لن يتغير .. ولن يفيدك شيئا

وإنما دورك أن تقول له وفى موقف عملى حاسم :

ماذا تريد منى ؟

---

(١) المستدرك ج ٣/ ١٤٣ .

وماذا ستقدم إلى ؟

ولن تسمع جوابا مقنعا .. وعليك أن تعوذ بالله تعالى :

قل الله .. ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ..

دعهم فى غيظهم .. يتلددون

وفى ريبهم .. يترددون

السـلاح .. القـاتـل

وما تزال النميمة بمعنى الوقيعة سلاح الماكرين ..للتنكيل بالنابهين ..

وكان أبرز مجالاتها قصور الحكام الذين يرفع الله بهم أقواما ويخفض آخرين:

أرســل **عبدالملك بن مروان إلى « الحجاج »** أن يرسل إليـه من يصلح للدين والدنيا .. حتى يتخذه أنيسا ومستشاراً ..

فأرسل إليه« الشعبى »

فعينه الخليفة سفيراً .

وبدأ الشعبى يمارس وظيفته الجديدة فى ظروف بالغة الصعوبة ..

فلقد أرسله الخليفة إلى ملك الروم .. سفيرا فوق العادة

فلما التقى بملك الروم .. فتن بالشعبى .. واستبقاه خمسة عشر يوما .

ثم سلمه خطابا ليسلمه لعبد الملك .. وجاء فى الخطاب :

(عجبت للعرب .. كيف يولون رجلا غير هذا الشعبى)

وفوجئ الشعبى بمضمون الخطاب .. وقال للخليفة :

إنما قال ذلك : لأنه لم يرك .

ولو رآك .. ماقال ذلك !

فرد عليه الخليفة قائلا :

إنما قال ذلك : لأقتلك !!

وإذا كـان ملك الروم منطقيـا مع نفسـه وهو يدبر هذه الوقيـعة ليجرد الحكم الإسلامى من أصفيائه ..

فما يال أقوام يكيدون للعلماء كيدا .. مع أنهم يعبدون إلها واحدا .. وكان الظن أن يجعلهم التوحيد كيانا واحدا ؟!

مـــن أســـرار الـــبـلاء

تمهيد :

قيل للإمام الشافعى رضى الله عنه :

يا أبا عبدالله :

أيهما أفضل للرجل :

أن يمكن .. أو أن يبتلى :(أى بالضراء)

فقال :

لايمكن .. حتى يبتلى :

فإن الله تعالى ابتلى نوحا وابراهيم وموسى وعيسى

ومحمداً صلى الله وسلم عليهم أجمعين ..

فلما صبروا .. مكنهم [١] .

وهكذا كان البلاء سبيلا إلى الفلاح والتمكين .

إنه الثمن المدفوع . تشترى به السلعة الغالية ..

تدفعه : من جسمك .. وطاقتك ..

ولقد سمى بلاء .. لأنه يبلى الجسد ..

وهو بهذا المعنى :

اختباره لدعوى العبودية لله تعالى . والرضا بقضائه ..

ومن هنا قيل :

---

(١) الفوائد : ٢٨٣ .

الناس فى الرخاء متشابهون .. لكنهم عند البلاء يختلفون .

من أسباب تخفيف البلاء

من عاش مع الله عزوجل . طيب النفس . فى زمن السلامة . خفت عليه فى زمن البلاء .. فهناك المحك .

إن الملك عزوجل : بينا يبنى .. نقض .. وبينا يعطى . سلب :

فطيب النفس والرضا .. هناك يبين

فأما من تواصلت لديه النعم .. فإنه يكون طيب القلب لتواصلها ..

فإذا مسته نفحة من البلاء .. فبعيد ثباته .

قال الحسن البصرى :

(كانوا يتساوون فى وقت النعم .. فإذا نزل البلاء تباينوا)

فالعاقل : من أعد ذخرا . وحصل زادا .. وازداد من العدد للقاء حرب البلاء.

ولابد من لقاء البلاء .. ولو لم يكن إلا عند صرعة الموت .. فإنها إن نزلت - والعياذ بالله - فلم تجد معرفة توجب الرضى أو الصبر .. أخرجت إلى الكفر .

ولقد سمعت بعض من كنت أظن فيه كثرة الخير .. وهو يقول فى ليالى موته:

ربى هو ذا يظلمنى ؟! ..

فلم أزل منزعجا . مهتما بتحصيل عدة ألقى بها ذلك اليوم ..

... فنسأل الله عزوجل أن يقينا شر ذلك اليوم . لعلنا نصبر للقضاء أو نرضى به .

ونرغب إلى مالك الأمور أن يهب لنا من فواضل نعمه على أحبابه .

حتى يكون لقاؤه أحب إلينا من بقائنا . وتفويضنا إلى تقديره أشهى لنا من اختيارنا ..

.. فليس فى الدنيا أطيب عيشا - ولا فى الآخرة - من العارف بالله عزوجل: فإن عمت نعمة : علم من أهداها .. وإذا مر مرّ حلا مذاقه فى « فيه » لمعرفته بالمبتلى عزوجل .

وإن سأل . فعوق مقصوده .. صار مراده ما جرى به القدر :

علما منه بالمصلحة . بعد يقينه بالحكمة . وثقته بحسن التدبير [١] .

(١) صيد الخاطر ١٦٠ - ١٦١ .

العارف بالله : غريب فى وطنه

من كان بالله أعرف .. فهو منه أخوف

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [١]

وقال صلى الله عليه وسلم :

(أنا أعرفكم بالله . وأشدكم له خشية)[٢]

ومن خاف الله تعالى :

صفا له العيش

وهابه كل شئ

وذهب عنه خوف المخلوقين

قرت عينه بالله .. وقر به كل شئ .

وأنس به .. ولم تبق له رغبة فيما سواه .

وقرت عينه بالموت .. وعظمه على قدر معرفته به .

ومن لم يعرف الله :

تقطع قلبه على الدنيا حسرات ..

علامة العارف :

١- أن يكون قلبه مرآة إذا نظر فيها الغيب الذى دعى إلى الإيمان به . فعلى قدر جلاء تلك المرآة يتراءى له فيها الله سبحانه والدار الآخرة وما فيها ومن فيها :

إذا سكن الغدير على صفاء

وجنـب أن يحـركـه النسيـم

---

(١) سورة فاطر ، من الأية ٢٨ .

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى فى صحيحه عن أنس بن مالك رضى الله عنه مرفوعاً .

بدت فيه السماء بلا حجاب

كذاك الشمس تبدو والنجوم

كذاك قلوب أرباب التجلى :

يرى فى صفوها الله العظيم

٢- العارف :

لا يخاصم ..

ولا يحاسب

ولا يرى له على أحد فضلا ..

٣- الأشياء فى نظره خيال .. فمن الخبال أن يحزن على ما فاته منها .

٤- يبكى على نفسه

وثناء على ربه .. يقول :

عرفت ربى بربى .. ولولا ربى ما عرفت ربى .

٥- الخلق فى نظره أموات .. فلا يعمل لهم حسابا

٦- العارف ابن وقته :

مشغول بعمله .. عما مضى .. وعما يأتى .

لا يحزن .. ولا يخاف ..

وليس هو ابن بيئته .. أو قبيلته على ماقيل :

وهل أنا إلا من غزية : إن غوت

غويت .. وإن ترشد غزية أرشد

أو على ما قيل :

وهل ينـبت الخـــطى إلا وشيجه

وتنبت إلا فى منابتها النخل ؟

وإذا قيل ذلك ..فإنه أكبر من ذلك .. فهو سيد قراره يعيش حاضره .. مؤديا رسالته ..

لا يسلم زمامه إلى لحزن .. ولا للخوف .. وإنما يسلمه إلى لأمل : والعمل !

البلاء فى الجـو الإيمانى

وللمؤمن عند البلاء وضع خاص .. كشف عنه الحديث الشريف :

(مثل المؤمن : كالخامة من الزرع :

من حيث أتتها الريح .. كفأتها ..

فإذا اعتدلت .. تكفأ بالبلاء ..

ومثل الفاجر :

كالأرزة الصماء : (فى علوها وشموخها)

لا تزال .. حتى يقصمها الله إذا شاء) (١)

ومن بركات الله تعالى على المؤمن أنه بالإيمان فى خير موصول :

إن أصابته سراء ..شكر .. فكان خيرا له

وإن أصابته ضراء .. صبر .. فكان خيرا له ..

وليس ذلك إلا للمؤمن .

وقد مر عيسى عليه السلام بواحد من هؤلاء المبتلين الأخيار ..

وكان الرجل : أعمى .. أبرص .. مقعدا .. مشلولا ..

وفوق ذلك .. فقد تناثر لحمه من الجذام .

ومع هذا فقد سمعه يقول :

الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرا من خلقه !!

وقال له عيسى عليه السلام : ياهذا :

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣٨٦/٦ .

وأي شئ من البلاء أراه مصروفا عنك ؟! فقال :

أنا خير ممن لم يجعل الله فى قلبه ماجعل فى قلبى من معرفته . فقال عيسى عليه السلام : صدقت !!

ثم قال له : هات يدك .. فناوله يده .. فإذا هو من أحسن الناس وجها .. وأفضلهم هيئة !! .. قد أذهب الله عنه ما كان .

فصحب عيسى عليه السلام . ولم يزل معه .

ثم صارت هذه العلاقة الحميمة بين عيسى عليه السلام وهذا الرجل .. حديثا يروى .. ثم درسا فى أدب التعامل مع كل معوق .. حتى يشعر بأنه ليس وحده ..

ولقد كانت للإسلام توجيهاته هنا .. والتى حددت ما يقوله المسلم عندما يشاهد معوقا ..

فمن أدب الإسلام :

عندما ترى المعوق أن تقول :

الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به ..

وكاف الخطاب هنا لاتعنى أن تواجهه بهذا الحمد ..

بل قل ذلك سرا .. حتى لا تكسر خاطره ..

قال النووى فى « الأذكار »

فإن فعلت ذلك .. لن يصيبك الله بهذا المرض أبداً :

وإذا رأيت مغموما .. فاحمد الله الذى عافاك من الغم ..

قلها سرا .. حتى لا يذهب الغرور بثواب الحمد ..

وحتى لا تجد نفسك يوما .. تقع فى نفس الحفرة .. ثم لا تجد من يسمى عليك !!

من علامات القبول

[إذا ابتلى الله عزوجل عبده بشئ من أنواع البلايا .. فإن رده ذلك الابتلاء إلى ربه . وطرحه ببابه .. فهو علامة سعادته وإرادة الخير به .

والشدة بتراء : لا دوام لها . وإن طالت .. فتقلع عنه حين يقلع .. وقد عوض منها أجل عوض و أفضله :

ومعنى إقلاعه رجوعه إلى الله بعد أن كان شاردا عنه .. وإقباله عليه بعد أن كان نائيا عنه .. وانطراحه على بابه .. بعد أن كان معرضا .. وللوقوف على أبواب غيره متعرضا .

وكانت البلية فى حق هذا . هى عين النعمة . وإن ساءته وكرهها طبعه .. ونفرت منها نفسه :

فربما كان مكروه النفس إلى محبوبها سببا ما مثله سبب .

وقوله تعالى فى ذلك هو الشفاء والعصمة :

﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾

وإن لم يرده ذلك البلاء إليه .. بل شرد عنه .. ورده إلى الخلق . وأنساه ذكر ربه والضراعة إليه .. فهو علامة شقاوته وإرادة الشر به :

فهذا إذا أقلع عنه البلاء رده إلى حكم طبيعته وسلطان شهوته . فازداد أشرا وبطرا .. وأعرض عن شكر المنعم فى السراء .. كما أعرض عن ذكره والتضرع إليه فى الضراء .. فبلية هذا وبال عليه . وعقوبة ونقص فى حقه .. بينما بلية الأول تطهير له ورحمة وتكميل [1].

(١) طريق الهجرتين ٢٢٤- ٢٢٥ .

عندما يهون البلاء

(من نزلت به بلية . فأراد تمحيقها .. فليتصور أكثر مما هى .. تهن .

وليتخيل ثوابها . وليتوهم نزول أعظم منها .. ير الربح فى الاقتصار عليها.

وليتلمح سرعة زوالها .. فإنه لولا كرب الشدة .. ما رجيت ساعات الراحة .

وليتعلم أن مدة بقائها عنده . كمدة مقام الضيف .

وعلى المسلم أن يتلمح الجوارح :

مخافة أن يبدو من اللسان كلمة . أو من القلب تسخط .

فكأن قدلاح فجر الأجر .. فانجاب ليل البلاء .. ومدح السارى بقطع الدجى .. فما طلعت شمس الجزاء إلا وقد وصل إلى منزل السلامة)[١]

أما بعد :

فقد روى الطبرانى :

(إن الله ليجرب أحدكم بالبلاء . كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار :

فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز .

فذلك الذى حماه الله من الشبهات .

ومنهم من يخرج كالذهب الأسود ..

فذلك الذى افتتن)

---

(١) صيد الخاطر : ٦٩ - ٧٠ .

البلاء .. من رحمة الله

إن من شيم النفوس البغى والتجبر .. فى غير الوازع الشرعى . فكان من رحمة الله تعالى أن يحميها من هذه العلل بأدوية المصائب .. يحفظ بها إيمانها:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت

ويبتلى الله بعض الناس بالنعم ..

ويقول آخر :

إذا اشتدت البلوى تخفف بالرضا

عن الله .. قد فاز الرضى المراقب

وكم نعمة مقرونة ببلية

على الناس .. تخفى .. والبلايا مواهب!

ومما يخفف وقع البلاء علم الإنسان بأن الجزع عند المصيبة أشد من المصيبة نفسها.. لما يترتب على هذا الجزع من أخطار . منها :

١- شماتة العدو.

٢- إساءة الصديق.

٣- إضعاف الجسم.

ثم يكون ذلك كله غنيمة باردة تقدمها إلى الشيطان الذى نشمته فينا .. وباختيارنا!

ثم هذه حال الناس جميعا فى علاقتهم بالدنيا .. فلم نكن استثناء من القاعدة.. هذه الدنيا التى تعطى أضعاف ما تأخذ :

لا تعتب الدهر فى خطب رمــاك بـــه

إذا استرد .. فقدماً طالما وهبا

ورأس مالك -وهى الروح - إن سلمت

لا تأسفن لشئ بعدهــا ذهبـــا

ثم إن البلاء تدريب للإنسان على مواجهة المواقف الصعبة ..

بحيث يضبط انفعالاته .. لتظل تحت سيطرته .. فلا ينفلت عيارها ..

﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم .. ﴾ (الملك ٢)

﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم .. ﴾ (الكهف ٧)

﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين.. ﴾ (محمد ٣١)

﴿هذا من فضل ربى ليبلوني أأشكر أم أكفر ﴾ (النمل ٤٠)

﴿ رب اغفر لى وهب لى ملكا .. ﴾ (ص ٣٥)

ولا تعرف قيمة اللذة .. إلا بالألم ..

ولا الجمال .. إلا بالقبح..

ولا الكمال .. إلا بالنقص

إن أحدكم لينضى شيطانه

كما ينضى أحدكم بعيره فى سفره ..

فإذا رماك الشيطان بسهم .. أثار فيك كل قواك واستنفرها جميعا .. فإذا أنت ذلك الأسد الجريح .. والذى يزمجر فى الساحة .. ولا يهدأ حتى يأخذ ثأره!

إن الابتلاء : صدمة كهربية نفيق بها من رقدة الغافلين

وكما يبتلى المسلم بالمعصية .. ليتوب ويستغفر ..

﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ (الصافات ١٠٤-١٠٦)

ما يجب أن يعرفه المسلم

وهو : اليقين بأن ما أصابه من سيئة فمن نفسك.. ويعفو الله تعالى عن الكثير:

يقول عز وجل :

﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ (الشورى٣٠)

قال الإمام على رضى الله عنه :

(هذه أرجى آية فى كتاب الله : وإذا كان يكفر عنى بالمصائب .. ويعفو عن كثير .. فما يبقى بعد كفارته وعفوه) ؟!!

من صور البلاء

(إن البلاء : أن يكون الرأى لمن يملكه . دون من يبصره)

قالها «المهلب بن أبى صفرة» للحجاج لما حثه على هزيمة الخوارج:

والمقصود هو :

أن الحجاج -لأنه الوالى- يملك الرأى الذى يصرفه كما يهوى .. وإن لم يحقق مصلحة.

أما المهلب :

فهو الذى سيدفع الثمن !

وهو الذى يعرف حيل الخوارج ..

ولكن رأى الحرب .. للحجاج .. وليس له

حـاشـية

قالوا : كلب ينبح لك .. خير من كلب ينبح عليك !

فأعط السخيف حتى لايكون عليك !!

واعتبره بلاء .. نجاك الله عز وجل منه.

المســـــلم
وفن التعــامــل مع الأزمـــات

يقول عز وجل :

﴿ ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ (البقرة: ١٥٥-١٥٧)

تمهيــد :

قد تتقاصر هممنا عن تحقيق ما يهمنا .. ثم تهجم علينا الأحداث تترى .. فلا نستطيع ردها .. ولا نحسن التعامل معها :

قد نودع راحلا عزيزا إلى مثواه الأخير ..

وقد نخسر فى صفقة علقنا على نجاحها كل أمانينا ..

وقد يرسب الولد فى الامتحان .. أو ينجح .. لكن المجموع كان فى الممنوع!

وقد نحاول الاعتماد على قوانا .. وإمكاناتنا..

ولكنها تعجز عن الصمود أمام هجمة الأحداث ..

وبهذا الفشل .. تتعقد الأمور .. لتصل بنا فى النهاية إلى حافة اليأس العقيم..

لكن القضية تحتاج إلى شئ من التفصيل . نضع به النقاط على الحروف .. حتى يتبين لنا الذين صبروا وتوكلوا .. ونعلم الجزعين !

مواقف الناس .. أمام الأحداث

١- هناك فريق من الناس تدهمه الأحداث .. فيجزع

٢- وفريق يحاول تغطية فشله ..بتعليقه على « شماعة » الزمن .

٣- وفريق ثالث .. يتمنى الموت .. فرارا من الأزمات .

٤- أما الذين صبروا .. وتوكلوا على الله .. فلهم مع الأحداث شأن فريد :

منهج فى مواجهة الكوارث

يقول صلى الله عليه وسلم :

(المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ..وفى كل خير .

إحرص على ما ينفعك . واستعن بالله . ولا تعجز .

وإن أصابك شئ فلا تقل لو أنى فعلت . كان كذا وكذا .

ولكن قل :

قدر الله وما شاء فعل . فإن« لو » تفتح عمل الشيطان)[١]

مقصـــود الـحـــديث

والحديث الشريف دعوة إلى قوة المسلم :

إلى أن يكون قويا .. فى جسمه ..

قويا فى إرادته ..

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة .

فإذا تحقق هذا الهدف السامى .. كان المسلم مرشحا ليتجاوز الأحداث .. وبلا خسائر .. واصلا إلى الهدف الأسمى .

ذلك بأن كلا من القوتين : كلتيهما يؤثر فى الآخر ويدعمه ..

ليتكون من مجموعهما إرادة صلبة تتحدى المحن والأزمات

(ذلك بأن النفس والبدن : كل واحد منهما مشتبك بالآخر :

وكثيراً ما يظهر أثر أحدهما فى الآخر :

فإن الأحوال النفسية .. تغير مزاج البدن .

ومزاج البدن أيضا يغير أحوال النفس .

فإذا قوى أثر ما فى النفس .. حتى يتفاوت به المزاج .. ويخرج عن اعتداله.. لم تقبل أثر النفس .. وعرض منه الموت

لأن الموت ليس بأكثر من ترك النفس استعمال الآلات البدنية .

وقد علمنا أن دم القلب الذى له اعتدال ما .. إذا انتشر فى البدن .. ورق بالسرور أكثر مما ينبغى .. أو عاد واجتمع إلى القلب بالغم أكثر مما ينبغى عرض من كل واحدة من الحالتين : الموت .. أو ما يقارب الموت بحسب قوة الأثر) .

عقدة الذنب

عندما نعود مهزومين أمام فاجعة ما .. يتملكنا الندم..

ولا بأس من الندم أسفا على ما فاتنا :

فالندم فى جوهره ظاهرة صحية .. إذا كان حسابا للنفس ومراجعة معها .. إرادة تلافى ما حدث من تقصير أو قصور .. أما أن يتحول إلى عقدة نفسية تفرض علينا « جلد الذات » إزاء ما قدمت .. فذلك هو الجزع المرفوض .

ذلك بأن الجزوع ينكسر .. فيخسر معركته مع الحياة ..

ثم تكون مصيبته مضروبة فى اثنين :

١- المصيبة نفسها

٢- ثم الجزع منها !

ولقد كان سلفنا الصالح يعرفون الحزن ..

غير أنهم كانوا يرفضون التشاؤم ..

منطلقين من الواقع الذى يؤكد :

أن الحياة لا تخلو من المتاعب .. والمؤمن إنسان :

تؤلمه تلك المتاعب .. بل وتحزنه ..

أما التشاؤم فهو :

اليأس من الإصلاح .. وتوقف محاولات النهوض ..

ويعنى ذلك : فقدان الإيمان .. أو ضعفه على الأقل ..

وصدق الله تعالى إذ يقول :

﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾

﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾

مشـــكلة اليـــائـــسين

ما هى نقطة الضعف فى قلب اليائس:

إنه ينطلق كالإعصار لا يدع من شئ أتى عليه إلا جعله كالرميم :

لقد استوى لديه - كما قيل - : الموت والحياة .. الحرية والعبودية .. الشرف والدناءة .. فلم يعد له فى الدنيا ما يبكى عليه بعدما أصيب بعمى الألوان فبالغ فى الطغيان ..

والإسلام يناديه من مكان قريب :

﴿ إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾

ولعله إذا تاب.. أن يتوب الله تعالى عليه .. ثم إذا بالمستقبل الواعد يحمل إلينا - وبتدبير من الله تعالى - يحمل إلينا ما نرجو . بعدما أذاقنا من ألم المعاناة من قبل ..

وإذا بالشخصية تخرج من المحنة أصلب عودا.

يصبح الإنسان أكثر قدرة على مواجهة الصعاب ..

ويستنير فكره الذى أبصر فى وهج الأحداث أسرار الحياة ..

وفى قلبه يعمق الرجاء فى فرج قريب .. بل كلما زادته الأيام من عذابها كلما تمكن هذا الرجاء فى قلبه .

من معانى القوة

ومن معانى القوة : التفاؤل :

أن تلاقى الهزائم كأنها شئ تألفه !ثقة بالله عزوجل . والتى تحملك على الرضا بما قسم لك سبحانه ..

وعندما نحرص على أن نغسل وجوهنا بالماء والصابون .. فيجب أن نكون أحرص - وقبل ذلك - على أن نغسل قلوبنا بالتفاؤل .. انتظارا لفرج من الله تعالى قريب .

ولقد كان **الشاعر « الفرزدق »** مع تجاوزاته .. ومجونه ..كان دائما يحسن الظن بالله سبحانه وتعالى .

ولما سئل عن سبب ذلك قال :

أرأيتم لو أننى شتمت والدى .. أكانا يؤذيانى؟

فلما قيل : لا .. قال :

فأنا بعفو الله تعالى .. أوثق من عفو أبى وأمى !!

لماذا الفأل ؟

[أحب النبى صلى الله عليه وسلم « الفأل الصالح »].

لأن الناس إذا أملوا فائدة الله . ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوى: فهم على خير . ولو غلطوا فى وجهة الرجاء.

فإن الرجاء لهم خير ..

ألا ترى أنهم إذا قطعوا أملهم ورجاءهم من الله .. كان ذلك من الشر ؟

وإنما أخبر النبى صلي الله عليه وسلم عن الفطرة : كيف هى .. وإلى أى شئ تتقلب [١]

قال الماوردى :

فأما الفأل :

ففيه تقوية للعزم.

وباعث على الجد .

ومعونة على الظفر .

فقد تفاءل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

سمع كلمة .. فأعجبته .. فقال :

أخذنا فألك من فيك

فينبغى لمن تفاءل أن يتأول بأحسن تأويلاته . ولا يجعل لسوء الظن إلى نفسه سبيلا .. فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم:

[البلاء موكل بالمنطق]

وروى أن يوسف عليه السلام شكا إلى الله تعالى طول الحبس .

فأوحى الله تعالى إليه : يايوسف:

أنت حبست نفسك حيث قلت !! «رب السجن أحب إلى ».

ولو قلت : العاقبة أحب إلى .. لعوفيت.

وهكذا كان البلاء طبق ما نطق الإنسان..

---

(١) لسان العرب ج١١/٥١٣ - ٥١٤.

قال الشاعر « المؤمل » :

شف المؤمل يوم الحيرة النظر

ليت المؤمل لم يخلق له بصر !

قال الراوى : فعمى المؤمل .. فأتاه من يقول له فى منامه :

هذا ما طلبت !

ومن أجل ذلك كان على المؤمن - وبخاصة فى مواجهة الأزمات - كان عليه أن ينشرح صدره .. ويحسن ظنه بالله تعالى فيتوقع الخير بما يسمعه من الكلم الصالح:

فإذا كان مريضا .. وسمع من يقول : يا سالم ..

أو كان طالب حاجة .. فسمع من يقول : يا واجد ..

فعليه أن يتفاءل .. ثم يتوقع السلامة والوجدان.

كيف نتعامل مع الأحداث ؟

قبل الحدث

إذا كان البلاء قدر المؤمن .. وإذا شاءت إرادة الله تعالى أن يكون الامتحان يسيرا: أن يكون البلاء «بشئ» وليس بكل شئ.. فقد وجب على المسلم .. أن يصبر صبرا جميلا .. هذا الصبر الذى هون الحبل السرى الذى يربط المؤمن بقيمة التوكل على الله تعالى .. والتى يكون بها أصلب عودا .. وأهدى سبيلا فى خضم الأحداث..

خطة الإصلاح

ويتلخص منهج الإصلاح فى خطوات حددها الحديث الشريف :

قبل هجوم الحدث

١- الحرص على ما ينفعك :

استمسك بالمتاح لك من الأسباب .. عض عليها بالنواجذ .. ولا تدع فرص النجاح تفلت من بين يديك.

٢- ولا تعتمد على قواك وحدها فى تحقيق آمالك .. فأنت لا تملك الكلمة الأخيرة .. ومالكها هو مالك الأسباب سبحانه وتعالى.

٣- ثم لا تعجز :

لا تقصر فى كفاحك ولا تدخر فيه وسعا .. ابذل كل ما تستطيع.

بعد الحدث

٤- فإن حدث مالم يكن لك فى حساب .. وضاع منك الهدف.. بل وأمطرك القدر الأعلى بما لم يكن لك فى حساب .. فلا تحاول أن تسرف فى الندم على مافات:

لا تقل لو أنى فعلت كذا .. لكان كذا ..

لأنك لا تملك من العلم والقدرة ما تطوع به الأحداث لتجيء على مزاجك..

فليس صحيحا أنك لو فعلت كذا .. لكان كذا ..

فذلك رجم بالغيب .. ثم هو تجاهل لقدرتك المحدودة التى لا تملك بها اتخاذ القرار الأخير

الذى يعلم ذلك كله هو مسبب الأسباب سبحانه وتعالى ..

فتوكل عليه وحده .. وأسلم وجهك إليه قائلا ..

قدر الله وما شاء فعل ..

لأنك لو استرسلت مع هواجس الفشل .. كان ذلك استسلاما منك لوساوس الشيطان.. الذى يهجم عليك فى لحظة من لحظات ضعفك .. حين لا يكون لديك جيش من الصبر والتوكل تقاومه به .. ومن ثم فهى فرصته التى يضرب فيها ضربته.. فلا تمكنه من نفسك .. واجمع قواك المبعثرة بالصبر .. والتوكل .. فإن فعلت .. فإنك إذن من الفائزين .

الفائزين بطاقة جديدة .. تستأنف بها السير من جديد . وبدون هذا التوكل .. تتعقد المشكلات:

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا

إذا لم يكن فوق الكرام .. كرام

إنك بمجهودك الفردى .. صفر على الشمال..

ولكنك بعونه تعالى : واحد صحيح !

إذا لم يعنك الله فيما تريده

فليس لمخلوق إليه سبيل

وإن هو لم يرشدك فى كل مسلك

ضللت .. ولو أن السماك دليـــــل

ويظل الإنسان يبذل فطرته :

يحب أن يعجل الله له ما يشتهى .. بينما يؤخر هو عمله لله سبحانه. وما تكفل الله تعالى به .. يلح فيه ..

وما طلبه منه سبحانه .. فإنه يماطل فيه

مفهوم التوكل

سمع عمر رضى الله عنه رجلا يلح فى الدعاء أن يشفى الله ناقته الجرباء .. فقال له عمر رضى الله عنه :

يا رجل :

اجعل مع دعائك شيئا من القطران !!

لقد كان عمر يعلم جيدا : أن جرح اليد قد يبرأ ..

أما جرح العقيدة .. فأمر خطير ..

من أجل ذلك .. لم يسعه إلا أن يسعف الرجل بنصحه أن يدعو ملحا .. وقبل ذلك . عليه أن يتخذ إلى تحقيق الأمل سبيله من العمل .. منطلقا من تلك **القاعدة العمرية** . والتى تقول :

أنا لا أحمل هم الإجابة ..

ولكن .. أحمل هم الدعاء ..

ولما رأى الرجل لم يستكمل عنصر الدعاء .. لفت نظره إلى أن دوره لا يتم إلا إذا أخذ بالأسباب .. وعندئذ تتفتح لدعائه أبواب السماء.

إن الجوارح : تسعى ..

والقلب ممتلئ اليقين ثقة برزق الله تعالى ..

فإن قصر العبد فى الأولى .. كان الفقر ..

وإن قصر فى الثانية .. كان الخذلان

وفى الوقت الذى يقول قائل :

الله لى فى السماء .. وأنت لى فى الأرض ..

نقول له :

﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله .. ﴾ (الزخرف : ٨٤)

وهو المعنى الذى كان فى ذهن الطبيب وهو ينصح مريضه :

إنما أنا فقط «معالج»

ولكن الشافى هو الله تعالى

ألا وإن السماء لا تنوب عنك فى إضاءة المصباح ..

ولكن هذا إلى سعيك أنت

والذى يصحب القافلة صفرا من الزاد .. متوكل على القافلة لا على الله عز وجل.

والواجب هو :

العمل .. ثم الحذر .. وتوقى المطر .. و الخطر .

رؤيـــة الرزاق
قبل رؤيـة الأرزاق

إذا كان هناك من فتن بما يملك من مال وجاه .. فإن هناك من صرفه إيمانه عن الملك .. إلى المالك سبحانه وتعالى .. فكان فى توكله أغنى .. وكان أتقى .. لأنه استمسك بالأبقى ..

أ- ومنهم تلك **العجوز** التى لم تكن تملك من الدنيا إلا خيمتها .. وشاتها.. قانعة بما حول الخيمة من نبات .. وما فى ضرع شاتها من لبن .. ليكون ذلك طعامها وشرابها .. وهى جد سعيدة بدنياها تلك الواسعة ..

إن أرادت أن تسمع الصوت الجميل .. فمن حولها تغرد العصافير..

وإن أرادت أن تمتع نظرها بجمال الكون فبين يديها .. ومن خلفها . صفوف النخيل.. والسماء الزرقاء .. لوحات إلهية تبهج النفوس .

وذات يوم ..

وفجأة هبت الرياح .. فأطاحت بالخيمة .. وبكل ما فيها ..

فماذا فعلت العجوز ؟

لقد كان إيمانها شاباً .. قوياً :

لقد نظرت ..

ثم انتظرت ..

لقد نظرت إلى الكوخ يطير فى الجو .. شظايا .. ولم تبق منها بقايا ..

ثم انتظرت الفرج قائلة وهى مبتسمة راضية :

تنظر إلى السماء :

افعل بى ما شئت

فإن عليك رزقى !!

مغـزى التــوكـل

إنه إذا كان التواكل : تراجعا .. وخورا ... وتخاذلا .. فإن التوكل يعنى : القوة .. والتحدى .. اعتمادا على الله عز وجل . والذى يقول فيه سبحانه على لسان نوح عليه السلام :

﴿ .. يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ﴾(١)

أبعاد التحدى

إنه يتحداهم .. طالبا منهم استجماع كل قواهم ..

وليفعلوا ما يشاءون .. وعلانية .. ثم لا يؤجلونه ساعة واحدة ..

وفيه من الاستهانة بهم مافيه .. لأنه معتمد على الله الذى لا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء .. بينما آلهتهم التى يعتمدون عليها .. لاتغنى عنهم من الله شيئا .

يقول الرازى :

[قال فى أول الأمر : « فعلى الله توكلت » :

فإنى واثق بوعد الله . جازم بأنه لا يخلف الميعاد .

ولاتظنوا أن تهديدكم إياى بالقتل والإيذاء يمنعنى من الدعاء إلى الله تعالى..

فأجمعوا أمركم : أجمعوا كل ما تقدرون عليه من الأسباب التى توجب حصول مطلوبكم .... وأن يضموا إليهم شركاءهم الذين كانوا يزعمون أن حالهم يقوى بمكانهم.

---

(١) يونس : ٧١.

« ثم لا يكن أمركم عليكم غمة »

وأراد أن يبلغوا فيه كل غاية فى المكاشفة والمجاهرة .

« ثم اقضوا إلى » :

وجهوا كل تلك الشرور إلى ..

(ولا تنظرون)

عجلوا ذلك بأشد ما تقدرون عليه من غير إنظار ..

.. ومثل هذا الكلام يدل على أنه عليه السلام كان قد بلغ الغاية فى التوكل على الله تعالى . وأنه كان قاطعا بأن كيدهم لا يصل إليه . ومكرهم لا ينفذ فيه]

وهذا هو التوكل بمعنى اللجأ إلى الله تعالى .. استهانة بالحياة .

وإزراء بكل من يتنافسون فيه . إنها قيمة التوكل فى أفقها العالى . وامتدادها المطلق . وهو معنى ينطلق من مسلمات يفرضها الإسلام :

إذ كيف لا يتوكل على الله تعالى من كان أمره إليه .. وهو واقف بين يديه ؟!

إن الاعتماد على النفس ضياع :

فإنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ..

والاعتماد على البشر خذلان .

ذلك بأن البشر جميعا لو أجمعوا أمرهم على نفعك أو ضرك .. فلن يبلغوا ذلك إلا بإذن الله ..

ولو أطاع البشر جميعا .. وعصيت أنت .. ما نفعتك طاعتهم .. ولو عصوا الله جميعا ثم أطعت الله .. ما ضرتك معصيتهم .. فعليك بخاصة نفسك.

نعيب زماننا .. والعيب فينا

ولقد كان الزمان تلك الشماعة التى حاول فريق من الناس أن يعلقوا عليها أخطاءهم ..

ومن رحمة الله بالأمة أن اختصها **بدعاة أيقاظ** .. لفتوا أنظارهم إلى الحق فى هذه القضية :

قال الشيبانى :

أتانا « أبو مياس » الشاعر . ونحن فى جماعة . فقال ما أنتم فيه ؟ قلنا :

نذكر الزمان وفساده .

قال : كلا .. ! الزمان وعاء . وما ألقى فيه من خير . أو شر . كان على حاله!

ثم أنشأ يقول :

أرى حللا تصـان على رجـال

وأخــلاقا تهــان ولا تصــان

يقولون : الــزمان بـه فســاد

وهم فسدوا .. وما فسد الزمان !!

ولقد كانت السنة صريحة فى تصحيح المعانى .. ورد الشاردين إلى الحق .. وذلك يمثل قوله صلى الله عليه وسلم :

[لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر]

أى : إن الله هو الآتى بالحــوادث .. وليس هو الدهر .. وهو يلفت نظر المهزومين أمام أحداث الدنيا .. ليعيدوا حساباتهم .. فيستحدثوا من الوسائل .. ما

يصححون به وجهتهم ويثبتوا أقدامهم ..بدل الهروب من المواجهة وتغطية الفشل .. بلعن الزمان .. والزمان برئ !!

ثم يتوجهون فى النهاية إلى الله عزوجل .. بعد استنفاد كل الوسائل .. واستنفار كل الطاقات .. توكلا عليه سبحانه .. وثقة بوعده الحق .

ولقد كان هناك علماء مربون .. جاءتهم بصائر من ربهم .. فتوكلوا على الله .. ثم أخذوا بيد الحيارى .. إلى مرفأ اليقين .. بما بينوا من مسئولية الإنسان عن نفسه وعن تعامله مع شئون الدنيا .. على نحو ينصف الزمان من أنفسهم .. بما صححوا من مفهوم التوكل .. عندما فضوا الاشتباك بين مفهومه .. ومفهوم التواكل بمعناه الضيق العقيم . إنهم أطباء الأمة الذين يمسكون بأعصابها قبل أن تمزقها المحن .. عندما أيقظوا النوام .. ليفتحوا أبصارهم على حقيقة الواقع المر .. والذى عبر عنه الشاعر بقوله :

نعيب زماننا والعيب فينا

وما لزماننا عيب سوانا

الــراغــبون فى الانــتــحار

من مقاصد الإسلام أن ينفرنا من اتباع الهوى ..

الهوى : الذى يحضنا على أمرين : أحدهما مر :

أن يحجبنا عن الحق .. أو يحجب الحق عنا !

بمعنى أن الإسلام يحررنا من قبضته .. ليكون أمر المسلم علي ما قيل :

عش عزيزا أو مت وأنت كريم

بين طعــن القــنا وخــفق البنــود

ولكن ناسا .. يؤثرون الميل العظيم إلى اتباع هواهم .. هذا الهوى الذى يصل بهم إلى حافة اليأس .. إن لم يسقطهم فى بؤرته ..

وإنك لتسمع أحدهم يقول :

يا مــوت : هــأنذا .. فخــذ

مــــا أبقــت الأيـام مــــنى

بينـــى وبينـــك خـطــوة

إن تخطــها .. فــرجت عــنى !

ولكن الإسلام الذى رفض اليأس من الإصلاح فى قوله صلى الله عليه وسلم [لا تقل لوفعلت ..] هو نفسه الذى يرفض اليأس من الحياة فى قوله صلى الله عليه وسلم :

[لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به :

فإن كان لا بد متمنيا فليقل :

اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى . وتوفنى ما كانت الوفاة خيراً لى]

من فقه الحديث الشريف

إذا كان الفاشلون اللاعنون للزمان هاربين من مواجهة المشكلات .. التى تزداد بالهروب والتأجيل تعقيدا .. فإن هناك من تدهمه الأحداث فيتمنى الموت .. يتمنى أن ينتحر !!

وعلى هؤلاء يقطع الرسول الله صلى الله عليه وسلم الطريق بهذا الحديث الشريف .

مناقشه هادئه لقضية ساخنة

لقد أصابتك الضراء فعلا .. فاستسلم لقدر الله .. يعينك عليه أنها كانت فى دنياك .. ولم تكن فى دينك ..

لا تضم إلى المصيبة أن تجزع .. حتى لا تصير بالسخط مصيبتين !

واذا كان الحق تعالى يقول :

﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص ﴾ فإن الحكمة تفرض عليك الاصطبار . فراراً من الانهيار .. ما دامت الأمور لا تجرى على مانهوى ..

ثم إن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا .. وهو بما كسبت أيدينا .. ويعفو الله تعالى عن كثير .. لا يؤاخذنا الله الرحيم به .

وإذن .. فلا خيرة لك .. والخيار الوحيد ألا يكون لك خيار . متوكلا على ربك .. فهو سبحانه حسبك .. وكافيك .

ولاحظ أنه صلى الله عليه وسلم يقول «لا يتمنين » تخاطب الفرد فليس هناك أمة ترغب فى الانتحار الجماعى !..

وإنما هى حالة فردية .. تناوش واحدا من مجتمع مسئول عن ردعه .. والوقوف إلى جانبه .. حتى يعود إليه صوابه .. أو يعود هو إلى صوابه .

والحكمة ضالة المؤمن .. أنى وجدها .. فهو أحق بها ..

وهاهى ذى الحكمة يقدمها « **برنارد شو** » والذى بلغ الستين من عمره .. فأعاد ترتيب أوراقه .. واستمتع بكل أوقاته إلى أن رحل عن الدنيا . وهو ينطح المائة عام !

وحتى آخر لحظة من عمره كان مفعما بالحيوية والنشاط .. قادرا على العمل .. مستعينا على تبعاته بالسخرية من تناقضات الحياة .

ولقد عاش عمره المديد : لا يشرب الخمر . ولا يدخن . ولا يأكل اللحم .. ولا يستجيب للنزوات الطائشة . ولا يستسلم للحزن على ما فاته ..

وقد فلسف حياته فى هذه الكلمات :

إننى لا أحزن أبدا .. لكننى لا أنسى !!

بمعنى أنه كبشر .. يحزن على ما فات ..

ولكنه لا يستسلم للحزن حتى لا يمتص عافيته .. بل يحلق فوقه .. منفلتا من أسره .. ليظل سيد قراره !

وإذا كان هذا مسلك رجل لا ينطلق إلا من فطرته .. فكيف إذا انضمت إلى الفطرة أنك مؤمن بالله .

وإذا كان هناك من تنؤكواهلهم بالعمل فيهتف :

إن الموت لمن أمس ذليلا .. أصلح .. فإن المؤمن يهتف قائلا :

الأصلح . أن نتذكر ألم نشرح ؟!!

ولن يغلب عسر يسرين أبدا !!

ألا إنها مواقف يعز اليوم نظيرها ..

وقد يسميها بعض الفارغين أساطير ..

ولكننا نقول :

إنها- لفرط إعجازها - رأوها كالأساطير !!

وكان عليهم أن يرتفعوا إلى سماواتها .. ليتأملوا بعض سماتها ..

فلعلهم أن يحاولوا الارتفاع إليها ..

الخروج من المأزق

وللخروج من هذا المضيق الخانق .. فلا بد من التوجه إلى القادر سبحانه على أن يجعل بعد العسر يسرا . ثم وليكن شعارك :

« اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرا لى

وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى »

وهناك أمر آخر هو :

أن قدرة الإنسان محدودة .. وعلمه قاصر .. قاصر .. حتى عن إدراك اللحظة الآتية :

وإذن .. فتمنيه الموت .. ينسيه أن ما بقى من عمره الذى يريد إنهاءه يأسا .. قد يكون خيرا له.

فقد يملون بالإحساس . الذى يزداد مع الأيام ..

ولعله إن أساء أن يكون ممن رضى الله عنهم .. وقبل عذرهم . وختم حياتهم بما هو خير لهم .

ألا وإن لحظة الضر لا تسقط من العمر أبداً ..

بل إنها لأخصب مراحل العمر .. لما لها من ثواب يتمنى معه المبتلى أن لو كانت حياته كلها ضرا !!

إن الخير فيما اختاره الله تعالى لك .. لا فيما اخترته لنفسك ..

وواجب المسلم هو :

أن تتعلق همته بالحق والخير :

فإن كان الخير فى الموت .. تمناه

وإن كان فى الحياة .. تمناها .

ولقد كان من دعاء الصالحين :

اللهم رضنى بما قضيت .. حتى لا أحب تأخير ما عجلت .. ولا تعجيل ما أخرت ..

وكان وصاتهم للتخفيف من حدة الآلام :

خمسة أشياء .. إذا ذكرها المرء . هان عليه بعض بلائه :

أ - أن يتذكر دائما : أن كل شئ بقضاء .

ب - وأن الجزع لا يرد قضاء . ولا يغير من الأمر شيئا .

جـ - وأن ما يبكيه أخف قطعا مما هو أكبر منه .

د - وأن كل ابتلاء للمؤمن لا يخلو من أجر ومغفرة . أو رفعة شأن . أو دفع بلاء أشد .

هـ - وأن ما عند الله خير وأبقى .

ولقد كان هناك من عباد الله الصالحين من يفرح بما يجره البلاء من مغفرة

ذنبه.. فى مقابل هذا الذى كان يسخط على قدر الله تعالى .. حتى تقول فيه الملائكة لربها :

داويناه - أى بالبلاء -

فلم يبرأ !! .. تعنى سخط !!

وإذا كان هناك من يقول :

إنما لدينا طعام وشراب ومنام

فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

فإننا نقول :

تلك هى الرفاهية الملهية عن الخاتمة . والتى سوف يلاقيها أولئك المترفون الذين كانت حياتهم سمرا وضحكا .. وسوف يدخلون النار وهم يبكون !!

أما المؤمن فهو على فقره متفائل دائما وشعاره :

تمتع بالصبح .. ما دمت فيه

لا تخف زواله .. حتى يزولا

وخلال ذلك .. فإنه يملأ حياته فى ظل هذا التفاؤل بالعمل الجاد المثمر ..

وقد يرهقه العمل ..لكن هذا قدره ..

﴿ إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا ﴾ المزمل : ٦

إن التكاليف صعبة .. مكلفة .. لكنها أقوم قيلا .. وأهدى سبيلا .. وأينع ثمارا فى حس المؤمنين العاملين المتفائلين

وقد يبدو العابد الساجد هزيلا ضئيلا ..

لكنه فى داخله يكون نبيلا جليلا .

ســـؤال

سأل سائل عن الفرق بين : التوكل والتواكل .. فقلت له :

إليك معنى التوكل .. من الواقع .. وبعيدا عن التشقيق والتدقيق فى كتب اللغة :

جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ولما نزل عن ناقته سأله الرسول :

اعقلها .. أم أطلق سراحها ؟

فقال له صلى الله عليه وسلم :

اعقلها وتوكل

١- إن الأعرابى هنا سعيد .. حين انتهى به قدره إلى رؤية رسول الله ﷺ.

٢- لكن سعادته باللقاء .. لم تنسه أن يؤمن طريق عودته ..بالحفاظ على بعيره .

٣- ولعله كان يظن أنه ببركته ﷺ ... لن يضيع بعيره .

٤- ولاحظ أنه لم يتخذ قراره قبل أن يستشير الرائد الذى لا يكذب أهله .. منطلقا من قاعدة :

(لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى)

وفى أمر قد لا يراه الناس ذا بال .. فيتسامحون فيه !

٥- وجاء رد الرسول ﷺ محددا معنى التوكل كما ينبغى أن يكون وهو :

الأخذ بالأسباب كلها .. وذلك قوله : اعقلها ..

ثم .. ليكن القلب أثناء ذلك .. وبعد ذلك على صلة وثقى بالله تعالى .. والذى إليه الأمر كله ..

بمعنى :

أن الجوارح تعمل .. لكن القلب متصل بالله تعالى .

متوكلا عليه .. لا على الأسباب !

ومن خلال هذا الموقف نطالع معنى التوكل :

قالوا :

التوكل هو :

(انطراح القلب بين يدى الرب . كانطراح الميت بين يدى الغاسل : يقلبه كيف يشاء . وهو :

ترك الاختيار .. والاسترسال مع مجارى الأقدار) [١]

وقال أبو سعيد الخراز :

(التوكل : اضطراب .. بلا سكون .. وسكون بلا اضطراب : يريد أن يقول :

إنها حركة ذاته فى الأسباب بالظاهر والباطن .. وسكون إلى السبب وركون إليه .. ولا يضطرب قلبه معه .

ولا تسكن حركته عن الأسباب الموصلة إلى رضاه) [٢].

---

(١) مدارج السالكين ج ٢ / ١١٩ .

(٢) نفس المرجع والموضع .

من سلبية التواكل
إلى إيجابية التوكل

وأما التواكل :

يتضح معنى التواكل من خلال هذا الموقف :

اقترب الشيخ : الصالح من أحد الذاهبين لأداء فريضة الحج ..

وكان يمشى وحيداً .. بلا زاد وبلا متاع .

وسأله الشيخ :

إلى أين ؟ فقال : إلى أداء فريضة الحج ..

فلما سأله الشيخ : وأين زادك ؟ قال :

أنا متوكل على الله !

وسأله الشيخ سؤاله الأخير :

وهل معك أحد ؟ قال :

معى القافلة .. فقال له الشيخ :

أنت إذن متوكل على القافلة !!

إنها النظرة المادية أو السلبية التى لا تأخذ بالأسباب .

وأنت واجد نفسك بين **نظرتين متناقضتين** :

فبينما يعتمد الماديون على إمكاناتهم وحدها ..

(وهى هنا : القافلة) .. فإن المؤمن معتمد على ربه سبحانه وتعالى .

وأثناء ذلك .. وبينما يعمر قلبه اليقين بالله ربا خالقا ..رازقا .. فهو عامل آمل ..

وإنه لأرحب نظرة .. وأسد حكما .. وأشد عزما ..

وإذا كان الماديون يرون بأجهزتهم ملايين النجوم اليوم .. فى مداراتها السحيقة .. بينما نرى نحن فقط بعضها .. فإن ذلك لا يخفى حقيقة أننا :

أصحاب النظرة الأعمق والأشمل :

لأننا .. وإن كنا نرى بعض النجوم .. فإننا - وبعين البصيرة - نرى آثار خالق هذه النجوم ..

فنحن - بالإيمان - المجتهدون .. الصابرون .. الآملون ..

وفى سباق الحياة اليومية .. قد يفشل الأغنياء . والأقوياء .. والأذكياء ..

ولكن المجتهدين .. لا يفشلون !!

القــرآن
يحرض المؤمنين على التوكل

جاء فى « نضرة النعيم » (١)

أن التـوكل على الله عـزوجل مطلوب فى كل شـئـون الحـيـاة . بيـد أن هناك مـواطن كثيـرة . ورد فيـهـا الحض على التـوكل والأمر به للمصطفى صلى الله عليـه وسلم والمؤمنين .

وقد ذكر « الفيروزآبادى » من ذلك :

١- إن طلبتم النصر والفرج .. فتوكلوا على الله :

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ آل عمران - ١٦٠ .

٢- إذا أعرضت عن أعدائك .. فليكن رفيقك المتوكل :

﴿ فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ النساء - ٨١ .

٣- إذا أعرض عنك الخلق . فاعتمد على التوكل :

﴿ فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت ﴾ التوبة - ١٢٩

٤- إذا تلى عليك القرآن . أو تلوته .. فاستند على التوكل :

﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ الأنفال - ٢

٥- إذا طلبت الصلح والإصلاح بين قوم .. لا تتوسل إلى ذلك إلا بالتوكل :

﴿ وإن جنحوا للمسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾ الأنفال - ٦١ .

---

(١) ج ٤ / ١٣٨٠ - ١٣٨١ .

٦- إذا وصلت قوافل القضاء .. فاستقبلها بالتوكل :

﴿ قلن لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا هو مولانا وعلى الله ليتوكل المؤمنون﴾ التوبة -٥١

٧- إذا نصب الأعداء ، حبالات المكر .. فادخل أنت فى أرض التوكل :

﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذْ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت ﴾ يونس -٧١ .

٨- إذا عرفت أن مرجع الكل إلى الله . وتقدير الكل فيها لله .. فوطن نفسك على فرش التوكل :

﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ هود - ١٢٣.

٩- إذا علمت أن الله هو الواحد على الحقيقة .. فلا يكن اتكالك إلا عليه:

﴿ قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ الرعد - ٣٠ .

١٠- إذا كانت الهداية من الله . فاستقبلها بالشكر والتوكل :

﴿ ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ ابراهيم - ١٢.

١١- إذا خشيت بأس أعداء الله .. والشيطان .. والغدار ..فلا تلتجئ إلا إلى باب الله :

﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ النحل - ٩٩.

١٢- إذا أردت أن يكون الله وكيلك فى كل حال .. فتمسك بالتوكل فى كل حال :

﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾ النساء - ٨١.

١٣- إذا أردت أن يكون الفردوس الأعلى منزلك .. فانزل فى مقام التوكل:

﴿ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ النحل - ٤٢ .

١٤- إذا شئت أن تنال محبة الله .. فانزل أولا فى مقام التوكل :

﴿ فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ آل عمران - ١٥٩ .

١٥- إذا أردت أن يكون الله لك وتكون لله خالصا .. فعليك بالتوكل [١]:

﴿ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾ النمل - ٧٩.

---

(١) بصائر ذوى التمييز ج٢ - ٣١٣ - ٣١٥ .

فى مجال التطبيق

لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أول المسلمين .. فقد كان أول المتوكلين:

(كان صلى الله عليه وسلم إذا غزا قال :

اللهم أنت عضدى ونصيرى :

بك أحول . وبك أجول . وبك أصول . وبك أقاتل) (١)

وكان صلى الله عليه وسلم يقول :

(اللهم : لك أسلمت . وبك آمنت . وعليك توكلت وإليك أنبت . وبك خاصمت .

اللهم : إنى أعوذ بعزتك .. لاإله إلا أنت أن تضلنى .. أنت الحى الذى لا يموت .. والجن والإنس يموتون) (٢) .

ولقد كانت سيرته ﷺ شاهدة بحقية سنته :

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه . قال :

غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قبل نجد .

فأدركنا رسول الله ﷺ فى واد كثير العضاه - شجر له شوك - فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة . فعلق سيفه بغصن من أغصانها . قال :

وتفرق الناس فى الوادى .. يستظلون بالشجر .

قال :

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الترمذى - ٣٥٨٤ - وقال : حسن غريب .

(٢) رواه مسلم - ٢٧١٧.

إن رجلا أتانى . وأنا نائم . فأخذ السيف . فاستيقظت .

وهو قائم على رأسى . فلم أشعر إلا والسيف صلتا - مسلولا - فى يده . فقال لى :

من يمنعك منى ؟ قال : قلت : الله

ثم قال فى الثانية : من يمنعك منى ؟ قال : قلت : الله . قال :

فشام السيف (أغمده)

ها هو ذا جالس ..

ثم لم يعرض له رسول الله [١] .

والمؤمنون على الطريق

كان الصالحون من عباد الله تعالى يتخذون من التوكل سلاحهم فى مواجهة تقلبات الزمان ..

فإذا وصلت قوافل القضاء .. استقبلوها بالتوكل !

وفى مواطن الخطر الداهم .. لم يكونوا ينزعجون إلى الأسباب .. مع شدة حاجتهم إليها .. ولا ترضى أنفسهم مفارقة الحق وإن كانوا واقفين عليها !

نماذج وصور

جاء فى كتاب « الزهد » [٢] :

(خرجنا فى ليلة مخوفة . فمررنا بأجمة (شجر كثيف ملتف) فيها رجل نائم. وقيد فرسه . فهى ترعى عند رأسه فأيقظناه فقلنا له :

---

(١) فتح البارى ج ٦ - ٢٩١٠ ومسلم : كتاب الفضائل ٨٤٣.
(٢) للسرى ج ٣٠٦/١ .

تنام فى مثل هذا ؟!

فرفع رأسه فقال :

إنى أستحيى من ذى العرش أنى أخاف شيئا دونه)

إن الرجل لم ينزعج .. ولكنه فقط يرفع رأسه .. ليعلمهم فى التوكل درسا عمليا .. وليس « أكاديميا » !!

وهو موقف يفض الرجل فيه الاشتباك بين معنى التوكل .. ومعنى التواكل .. فضا لا تبقى معه شبهة لمتواكل ..

الأعرابية .. تعلمنا فن التوكل

هبت الريح العاصف .. فبعثرت الخيمة التى طارت بددا ..

وأمام المشهد الفاجع .. احتفظت الأعرابية بنفسها التى لم تطر مع العش المبعثر .. وقالت .

افعل بنا ما شئت .. فإن رزقنا عليك

ومثلها فى تحدى العواصف **« أسماء بنت يزيد »**

والتى قتلت بعمود خيمتها تسعة من جنود الروم !! .. مدربين .. مدججين بالسلاح ..

وليت شعرى :

كم يساوى هذا العمود .. من مخلفات تراثنا ؟

لقد أقيم « مزاد » بالأمس .. عرضت فيه « ساعة » فنانة كبيرة .. فوصل ثمنها إلى عشرات الملايين !!

وقلت فى نفسى :

كم يساوى عمود الخيمة هذا ؟

إذا كانت الممثلة دخلت التاريخ من أوسع أبوابه ..

فإن « أسماء » تدخل الجنة من أى أبوابها شاءت ..

ويكفيها ذلك ذكرا فى العالمين !

من رواد مدرسة التحدى

كان « **العز بن عبدالسلام** » واحدا ممن كانت العزة محورا تدور عليه حياتهم ..

ثقة بالله .. وتوكلا عليه .. وتفويضا إليه :

وفى مجلس علمه كان يقول للتلميذ الذى يقرأ الدرس إذا ما انتهى من باب من أبواب العلم .. كان يقول له :

اقرأ سطرا من الباب التالى .. ادخل بنا فيه .. لحظات ..

فإنى لا أحب أن أقف على الأبواب !!

ولقد كلفته هذه العزة كثيرا من المتاعب .. فكان لا يأكل إلا من عمل يده .. وإن تيسرت أمامه سبل العيش ..

ولم يكن يقيم على ضيم يراد به ..

ولكنه كان على ما قيل :

(لا تلثوا بدار معجزة) أى :

لا تقيموا ببلد تعجزون فيها عن الاكتساب والتعيش ..

لأنه لم يكن يطيق أن يحمل منة من أحد !!

ومن أجل ذلك :

عاش سلطانا ..

ومات سلطانا ..

ومن قبله كان **موقف موسى عليه السلام** .. وهو يتحدى الطغيان فى عقر داره .. حيت تحداه فرعون .. فكان عليه السلام أقوى منه فى تحديه .. وذلك فيما

حكاه القرآن الكريم عنه فى قوله تعالى :

﴿ قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾

إنه يدعو إلى المبارزة فى وضح النهار .. وفى يوم مجموع له الناس .. منطلقا فى ذلك التحدى من ثقة كاملة بالله عزوجل .

واستهانة بكل من عداه !!

رقـــابة الأمـــة

دخل رجل البادية وحده .. فأحس بالوحشة ..

فسمع من يقول له :

لقد خنت العهد الذى بينك وبين ربك !!

فالله معك .. وأنت فى عزلتك .. ولست وحدك !

وهكذا كان هناك ما يشبه الرقابة والمتابعة ..

حتى تظل العقيدة على حالها .. والعهد على قوته .. بين المؤمن وبين ربه سبحانه .. والذى هو معه دائما .. وحيثما كان .

وانطلاقا من هذا المعنى كان من وصاتهم :

لا تقل : أنا مع الله .. لأنك لا تعرف ذاته ولا تدرك قدره .

ولكن قل : الله معى ..

معى .. كمسلم : بالتوفيق .

ومع الكافرين .. بالقهر والهيمنة ..

وليس الشأن أن تحب الله تعالى .. ولكن الشأن :

أن يحبك الله تعالى .

منطـق

شغل الوالد على بناته .. فى غربته ..

فقال له صاحبه وهو يحاوره :

لو كان معهن أخ لهن .. أكنت تخاف عليهن ؟!

قال الوالد :لا ..

فقال له صاحبه :

فكيف تخاف إذن .. والحافظ هو الله تعالى ؟!

إنه لا مجال للخوف مطلقا ما دامت البنات فى ذمة العزيز العليم ..

ولقد توهجت هذه الحقيقة فى وعى ناس صالحين فأصلحوا بيقينهم نفوسا :

عندما سخر الغنى القوى من رجل فقير .. قال له الفقير :

كيف تسخر منى .. ومن فقرى ، وسيدى له ما فى السموات وما فى الأرض ؟! فكيف أكون فقيراً ؟!!

إن الغنى هنا ينظر إلى الرزق .. ولكن الفقير ينظر إلى الرازق سبحانه ..

وشتان ما بين النظرتين :

شتان مابين لمحة البصر .. ونظرة البصيرة !

التحـدى الأكـــبر

كانت الطائرات المغيرة .. تحمل القنابل « العنقودية »

ومعها عناقيد العنب فى نفس الوقت ..!!

ثم ماذا ؟

ثم كانت تضرب الآباء .. والأمهات بهذه القنابل العنقودية .. فتهلكهم .. ليكونوا من بعد طعاما للغربان !

وفى نفس اللحظة تسقط عناقيد العنب .. مع الخبز إلى الأيتام .. أيتام هؤلاء الراحلين ؟! فى صورة من صور النفاق لا مثيل لها !

ولكن ..

ولكن التحدى الأكبر هنا .. جاء من قبل هؤلاء الأيتام .. الذين رفضوا هذا الطعام الحرام لقد أحرقوه .. مع شدة حاجتهم إليه ..

لقد آثروا الموت الزؤام .. على أن يكونوا ضيوفا على موائد اللئام !!

ورحم الله مؤمنا يرى الطغاة من نفسه قوة !

درس من هناك

فى بلد أجنبى .. خرجت الفتاة باكية شاكية ظلم الإنسان .. إلى الشيخ الذى رق لحالها . وسألها عن سر بكائها ..

فقالت له :

رفض أبى أن أسكن معه إلا بالإيجار العالى .. وهى لا تملك الوفاء بشرط أبيها !!؟

لكن المهم هنا هو :

أن هذه الفتاة لم تستسلم إلى اليأس .. لكنها لما طردت من بيت أبيها .. ذهبت إلى حيث القمامة المتراكمة ..

ثم التقطت منها الزجاجات الفارغة .. والتى غسلتها .. ثم باعتها .. ثم كانت لها من بعد ثروة أغنتها عن سؤال اللئام ..

ومعنى ذلك أن هذه الفتاة لم تيأس .. فى الوقت الذى ضاع منها خط دفاعها الأخير وهو أبوها ..

لقد بقيت لها من الأمل بقية قادت خطاها .. وشدت من عزمها .. (وبقية السيف أنمى) .

وكان من دروس موقفها :

ألا نستسلم للظروف القائمة .. لأن ذلك مما يضاعف آلامنا ..

وألا نتجاهل الواقع الصارم .. هاربين منه إلى الخيال .. الذى يسلمنا فى النهاية إلى الخبال !

وهذه واحدة من دروس الحكمة التى هى ضالة المؤمن .. والذى إذا وجدها فهو أحق بها وأهلها .

فإذا أضيف إلى ذلك أننا مسلمون .. فقد وجب علينا أن نستلهم روح الإسلام التى تشد من أزرنا .. وتضاعف من قوانا حتى نتخطى الحواجز بنجاح .. ذاكرين تلك الموعظة من الرجل الصالح الذي عزى **عمر بن عبدالعزيز** فى ولده الذى مات .. فقال له :

إن الذى كان لك فى الدنيا سروراً .. قد أصبح لك فى الآخرة أجراً !!

ويعنى ذلك ألا يتوقف نشاطنا فى المآزق الحرجة .. وإنما نأخذ بالأسباب .. بينما قلوبنا مطمئنة إلى تصاريف الأقدار العليا .. ذاكرين أيضا ماقاله **يوسف عليه السلام** لرفيق السجن المفرج عنه : [١]

﴿ .. اذكرنى عند ربك ﴾

---

(١) الفكرة هنا للشيخ الجزائرى

إن يوسف عليه السلام حريص على أن يذكّر الملك عن طريق خادمه بقصته .. فلعله أن يصدر قرارا بالإفراج عنه ..

ولم يقدح ذلك فى عقيدته ..

وإنما هو منسجم مع ماضيه الذى تعلم منه ضرورة الأخذ بالأسباب .. مع التسليم المطلق بقضاء الله تعالى وقدره :

لقد خرج من الجب .. بالأسباب ..

ونجا من كيد المرأة .. بالأسباب ..

فلا بأس أن يواصل رحلته مع الأسباب ..

مع يقينه بأن الأمر كله بيد مسبب الأسباب سبحانه وتعالى .

من صور البلاء :
هؤلاء الذين يسفحون دموع التماسيح

يقتلونك..

ثم يمشون فى جنازتك !

وهم الذين قيل فيهم :

وكنـــت كذبـــاح العصـــافير جـــاهدا

وعينـــاه مـــن حـــزن تهـــل وتدمـــع

فلا تنظرى ليلى إلي الدمع .. وانظرى

إلى الكف .. ماذا بالعصافير تصنع !!

غرور العبّاد

قال أحد الصوفيين واثقا بنفسه :

ليس لى فى سواك حـظ

فكيفما شئـت .. فاختبرنى

قال ذلك : قال ذلك : صادرا فى ذلك عن يقين جازم بأنه :

جاهز لتحمل البلاء مهما كانت قسوة هذا الابتلاء ..

فمرض باحتباس البول ..

وصـابر العلة .. ونجح فى مـرحلة المرض الأولى إلى الحد الذى لم يسـأل ربه الشفاء

حتى جاء تلاميذه فأخبروه بأنهم سمعوه يسأل ربه الشفاء ..

فعلم أن مراد ربه أن يسأله .. لا أن يترفع عن السؤال ..

فـعـاقب نفسـه بالطواف على صـبيـان المكاتب يقـول لهم : ادعـوا لعـمكم

الكذاب!!

أما بعد :

فسبحان المتصرف فى خلقه بالاغتراب والإذلال . ليبلو صبرهم . ويظهر جواهرهم فى البلاء .

هـذا **آدم** صلى الله عليه وسلم : تسجد له الملائكة .. ثم بعد قليل يخرج من الجنة .

وهـذا **نـوح** عليه السلام : يضرب حتى يغشى عليه .. ثم بعد قليل ينجو من السفينة . ويهلك أعداؤه .

﴿ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾

وهذا **الخليل** عليه السلام : يلقى فى النار .. ثم بعد قليل يخرج إلى السلامة

﴿ قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ﴾

وهذا **الذبيح** : يضطجع مستسلما .. ثم يسلم ويبقى المدح :

﴿ ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾

وهذا **يعقوب** عليه السلام : يذهب بصره بالفراق .. ثم يعود بالوصول .

﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ﴾

وهذا **الكليم** عليه السلام : يشتغل بالرعى .. ثم يرتقى إلى التكليم

وهـذا **نبينا محمد** صلى الله عليه وسلم : يقال له بالأمس اليتيم ويقلب فى عجائب يلاقيها : من الأعداء .. ومن مكائد الفقر ..وهو أثبت من جبل حراء ..

.... فمن تلجج بحر الدنيا .. وعلم كيف تتلقى الأمواج .. لم يستهول نزول بلاء . ولم يفرح بعاجل رخاء][١].

(١) صيد الخاطر - ٢٠٤-٢٠٥.

علماء .. آخر الزمن

أطل العالم من برجه الفضائى العالى يحمل الواجدين مسئولية إطعام الفاقدين من جيرانهم .. وإلا .. فإن ذمة الله تعالى بريئة منهم .. لأنهم رضوا لأنفسهم بأن يبيتوا مثقلين بالتخمة بينما جارهم يشكو المسغبة !

ويبدو أن الشيخ كان يعيش جو الطعام والشراب فاتجهت موعظته إلى الشبعان .. الريان .. بينما أخوه المسلم يعانى الحرمان .. أى أن القضية .. قضية المعدة أولا وأخيراً ..

ونسى الشيخ أن ينبه جمهوره العريض إلى لون آخر من « الجوع » و«الحرمان» أخطر مما تصور :

إنه ذاهب الآن إلى المدينة الساحلية يستنشق الهواء الطلق ..

وسوف يستلقى هناك على الرمال الناعمة آمنا مطمئنا ..

وفى نفس الوقت يعلم أن « أخاه » محروم من الهواء .. ومن الأمان ..

إنه «جائع» إليهما .. بينما الشيخ شبعان ريان .. ولا عليه من جوع الجائعين .. وخوف الخائفين !

ولم تكن المشكلة هنا فى « المعرفة » .. ولكنها بالدرجة الأولى أن الشيخ لايريد أن يعرف ..

لا يريد أن يغوص فى الأعماق ليستشعر إنسانية الإسلام الذى لم يكن ليحرص على لقمة العيش تطعم بها الإنسان .. ثم ينسى « كرامة » هذا الإنسان التى هى أغلى من كل متاع .

إن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ [١]

وإذا كان المنافقون لا يعلمون أن العزة لله .. ولرسوله .. وللمؤمنين .. لأن اعتراف المنافقين بذلك .. قضاء عليهم .. لأنهم الأذلاء ..

إذا كان المنافقون لا يعلمون ذلك .. فما بال « العلماء » لا يعلمون علما يحملهم على إسعاف المسلم ليظل مثلهم عزيزاً ؟

وما بالهم بدل أن يفهموا .. يؤثرون أن يتجهموا !

لقد كان الأصدقاء .. زمان .. كانوا يتحاشون أن يسألوا أخا لهم حاجة ضرورية .. حتى لا يورطوه بالاعتذار عن قضائها ..فيحرج ..

ما بالهم اليوم .. يجدونه « متورطا » فعلا .. ثم لا يتحركون ..

ما بالهم والعلم الغزير يتفجر من « عقولهم » .. أما عن «قلوبهم» .. فتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون !

---

(١) المنافقون - ٨ .



(١) يقال : زحل الشئ : زل عن مكانه .. أى تأخر
وفى الذم يقال : ازحل عنى .. فقد نزحتنى . أى : أنفذت ماعندى .
وزحل : اسم كوكب من الخنس ..
وسمى زحل : لأنه زحل . أى : بعد .
وهو ممنوع من الصرف لعلتين :المعرفة والعدول .

٩ و١٠ يونية !!

سوف يتبادر إلى الذهن فور قراءة العنوان .. ذلك اليوم المشهود من أيام شهر يونية ١٩٦٧ .. وبعد الهزيمة الأليمة .. حين « أخرج » الناس إخراجاً .. طبق خطة مبيتة تستهدف الإبقاء على الرئيس ..إبقاء مرتكزا على إرادة شعبية !

ولكن .. كل يغنى على ليلاه ..

وليلاى هنا هى: هذان اليومان اللذان طلع البدر فيهما .. فكان الأمل العريض فى فرج الله تعالى ..

وإذا كانوا يقولون : إن أشد لحظات الليل ظلاما .. هى تلك التى تسبق طلوع الفجر .. فكذلك كنت :

لقد أخرجت الجماهير من بيوتها ودواوينها تهدر كالسيل ..

ولكننى لم أكن أملك هذا المحيط الهادى .

لقد اتصل بى من أعطانى رقم المحمول فى يد الرجل المأمول .. وذهبت إليه ..

وكان ذلك على مدى يومى : التاسع والعاشر من يونية سنة ٢٠٠١.

ورغم صداقتى القديمة له .. إلا أننى وفى معمعان الشدة ..

اكتشفت أن لشخصيته أبعاداً متراحبة :

يتكرر اللقاء .. ويتجدد منى الرجاء .. وكان الظن أن يكون هناك نسبة من الملل عنده .

ويكبر الرجل فى عينى إلى الحد الذى أقول فيه موقنا : إننى لا أستعظم أن يسبق إلى الفضيلة .. ولكنى أستعظم أن يسبقه أحد إليها !

مخلص واحد يكفى

وعلى مدى هذين اليومين .. تتجدد حسناته .. وقد أنسى حسنة .. لكن الذى أنسانيها هو : حسنة منه جديدة .. وإذ تهدر الجماهير حول الزعيم .. فإنك بهذا الصديق الحميم تقف على حقيقة تفرض نفسها وهى : إن مخلصا واحداً يكفى..

وصحيح : أنه فرد واحد .. ولكنه يعدل أمة :

(فمن شرارة واحدة .. يشتعل القش اليابس .

ومن سحابة واحدة .. ينبثق البرق .. وينير فى لحظة خلايا الأودية . وقمم الجبال .

إنه واحد .. ولكنه جندى فى كتيبة الإيمان :

إنهم طائفة قليلة العدد . بين طوائف كثر عددها .. ولكن فى الغصن المزهر ماليس فى غابة يابسة .

وفى حبة القمح . ماليس فى رابية من التبن .

إنهم النواة التى طرحها الله تعالى فى حقل ما ..

فشقت طريقها بعزم لبابها .

وتمايلت غضة أمام وجه الشمس .

وسوف تنمو شجرة عظمى .. تمتد عروقها إلى قلب الأرض .

صاعدة فروعها إلى أعماق الفضاء)

إن أحدهم مثل الشمس : يطلع النجم . فتمحقه .. فلا يراه أحد !!

وبينما الكسالى يمضون فى موكب من عجائز محدودى الظهور يسيرون متوكئين على العصا العوجاء .. إذا بموكب الإيمان يمضى من فتيان :

يتراكضون كأن فى أرجلهم أجنحة ..

ويهللون .. كأن فى حناجرهم أوتاراً ..

وذلك طبع المؤمن .. العفيف .. الشريف .. الأريحى ..

وصدق الشاعر العربى حين يقول :

ولم أر أمثال الرجال تفاوتا

إلى المجد .. حتى عد ألف بواحد

وقد أتخيل من يقول عاذلا :

ياقوم .. إنما فتنتم به ؟!

وأقول : أجل إنها الفتنة .. فتنة الذهب يصهر بالنار لتظهر جودته ..

لقد قلبوا الأمور .. وقرروا أن يقصموا الظهور .. فجاء من يحبط كيدهم .. أفلا أكون شكوراً .. ذكورا فضل من أجرى الله على يديه الفضل ؟! وبعد ثمانية أيام حسوما ؟!

إن أعداءك قد يفترون عليك الكذب ..

ولكن : لا تهمنا كلمات أعدائنا .. لأننا سوف نسقطها يوما .. ثم ننساها.

ولكن الذى يحزننا حقا هو :

صمت أصدقائنا .. عندما دهمتنا المحنة ..

إن الأعداء منطقيون مع أنفسهم .. فيما يقولون .. أو فيما يتقولون ..

ولكن مابال الأصدقاء يسكتون ؟!!

وليتهم ظلوا ساكتين « سكتة حفص » -!- .. ولكنهم حين تكلموا .. يعذلون! .. إلا واحدا .. كان خيرا مما يظنون !

قيل لبعضهم :

أى الأعداء لا تحب أن يعود لك صديقا ؟ قال :

من سلبت عداوته النعمة :

أما أنا فقد سلبت منى نعم :

الأمن .. والنوم .. والبحث !

فوجدت فيه نعم الأنيس .. ونعم الجليس ..

رجل .. غلب نفسه .. فكان النصر حليفه فى كل معركة ..

وباسم الإسلام .. نحن مأمورون أن نحب لكل مؤمن ما نحبه لأنفسنا .. فكيف لا نحب من يحبنا ؟

وبنفس القوة نحن منهيون عن طاعة :

صاحب هوى .. قد فتنه هواه

وصاحب دينار .. أعمته دنياه

كلاهما :

يقدم الرأى على الشرع

والهوى .. على العقل

لقد دافع « حاطب بن أبى بلتعة » رضى الله عنه .. عن نفسه بشأن ما نسب إليه ..

واستأذن عمر رضى الله عنه فى ضرب عنقه .. ظنا منه أنه نافق ..

ولما ظهر الحق .. وقف الرسول إلى جانبه .. سنة منه صلى الله عليه وسلم . تفتح الباب أمام كل راغب فى إنقاذ مظلوم ..

صورة من تاريخنا

قال الخليل بن أحمد :

أيامى أربعة :

يوم ألقى فيه من هو أعلم منى .. فهذا يوم فائدتى وغنيمتى .

ويوم ألقى فيه .. من أنا أعلم منه .

فهذا يوم أجرى .

ويوم ألقى فيه من هو مثلى ..

فهذا يوم مدارستى

ويوم ألقى فيه من هو دونى .. وهو يرى أنه فوقى ..

فهذا : لا أكلمه .. وأجعله يوم راحتى !

ونستأذن الخليل رحمه الله تعالى فى **يوم خامس** هو :

هو اليوم الذى التقى فيه بمن يقضى حاجتى ..

فهذا يوم سعادتى !!

لقد كنت أردد فى الصباح :

إن سئمت الحياة .. فارجع إلى الأرض . .. تنم خاليا من الأوصاب

تلك أم أحنى عليك من الأم التى خلفتك للأوصاب

لا تخف .. فالممات ليس بماح منك إلا ما خلفته من عذاب

وحـيــاة المرء اغـتــراب .. فـإن مــات ..

فـقـد عـاد ســالما للتــراب

وفجأة تمتد إليك من خلال الموج .. فإذا أنت على الشاطئ الآمن ..

إنها يد شخصية مهذبة .. مجاملة ..

وكما يقولون :

إن **شخصية من هذا النوع** .. لما تتصف به من هدوء .. ولين .. ووقار .. ربما لا تكون مرشحة لحسم القضايا الكبيرة .. التى تحتاج إلى « قسوة »

ولكنه كان كالماء :

إنه مع لينه .. ينحت الصخر مع صلابته ..

وإذا قال الأديب : عندما أحمل قلمى .. لا أعبأ بشئ ..

فإنه كذلك عندما يتخذ قراره .. لا يعبأ بشئ !!

ورجل من هذا الطراز .. إنما هو رزق ساقه الله تعالى

إلى الحياة . كواحد من القضاة .. الأساة :

يأسو الله بهم الجراح .. ويقطع الله بهم الطريق على أعداء الإصلاح .

قـــدر العـــلماء

يقول « فوليتر »

(إن الرجل لا يكون عظيما داخل بيته . ولا بطلا فى أسرته)

يريد أن يقول :

إن عظمة المرء لا يعترف بها من هو أقرب الناس إليه .

وهذا قدر العلماء : أن يعيشوا فى أوطانهم غرباء .. حتى قيل :

لا كرامة لولى .. فى وطنه

وليت العاذلين يديرون ظهورهم لعلمائهم .. مكتفين بعزلتهم ..

ولكن المثل الشعبى يقول :

إذا وقعت البقرة .. كثرت السكاكين !!

ومن هذه السكاكين : الافتراء .. عندما يكون الميزان فى اليد الشلاء .. التى تسمع منك الفلتات .. فلتات اللسان ..

فإذا هم يحكمون عليك بها حكم الإصرار .

وقد يخطئ العالم يوما .. لكنه ليس الخطأ المتعمد ..

ولئن أخطأ يوما سبيل الصواب .. فما أخطأ أبدا سبيل حسن النية فيما بينه وبين قومه ..

وما عرض ستر الإخاء للتمزق !!

لحم العلماء مر

ومع أن لحم العلماء مر .. تنبغى صيانته .. فإنه - وفى الأزمات- أشهى من ألسنة العصافير !

ومن أجل ذلك تكون مجالس غيبتهم .. هى نزهة العابثين الذين يبدون فيها .. فاكهين ..

ولا بأس :

فنقائص العظماء : عزاء التافهين .

إنها مسلاتهم وملهاتهم التى ينفسون بها عن حقدهم .. وفشلهم فى تحقيق مثل ما حقق الفضلاء ..

فلندعهم .. والقافلة تسير .. ولا يقيدها عواء الكلاب ..

وعزاؤنا :

أن المغتاب .. يختار لسهامه أفضل البشر ..

تماما كما تنقر العصافير دائما .. أجود الثمر !!

أما بعد :

فإن الله تعالى يقول :

﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾ ونقول فى ضوء هذه الآية الكريمة :

ولن يجعل الله للعصاة على الطائعين سبيلا

مثال

حول الكعبة الشريفة : اصطدم الشيخ الكبير برجل حبشى .

فصفعه الحبشى على عنقه . فشلت يمينه .

وسكت الشيخ ..

فاعتذر الحبشى .. وسامحه الشيخ .

لكن يده بقيت شلاء

فعاوده الحبشى .. ثم كرر اعتذاره

فقال له الشيخ :

لقد سامحتك ..

لكن يجب أن تعلم أن لهذه الأعناق ربًا يغار عليها !!

استطـراد

وإذا كـان من الحكمـة أن يســخر الله تعـالى مـن يحـمى هذه الأعنـاق .. من الهواء.. بالحق

فإن من الحكمة التخلى عن المفسدين .. ليكون عقابهم ردعا لغيرهم ..

فلا تجوز الشفاعة فيمن تعمد الإفساد :

لأن الشفاعة لهم تعنى :

زيادة فرصهم للعودة إلى سالف الإجرام

وأشد جـرائم الأمم : تمكين المجـرمين من كـسر قـوانينهـا . وفـتح طريق العـودة لهم.

وإذن .. فعقابهم هو : عين الرحمة :

رحمة الجماعة . وصيانة حقوقها .

وهى أحق بالرعاية من رحمة فرد مجرم .

وقصة نوح عليه السلام شاهد على ذلك :

فقد أهلك الله تعالى الأكثرية الظالمة .

من أجل الأقلية المؤمنة .

وهكذا قال علماؤنا :

إن الجريمة تلد الجريمة . والظلم ينتج الظلم .

ورفض الوساطة يعنى :

تعقيم نسل الجريمة حتى لا تنمو وتنتشر.

أخلاق السيادة وحقيقة العبادة

نحن فى حاجة إلى عودة ميمونة إلى الماضى .. لنرى كيف تراجعت « الأنا » لتكون «نحن » هى شريعة الصحاب .. بل شريعة التعامل حتى مع الأغراب .

فماذا عن تعامل الإخوان ؟ ماهى القيم الحضارية التى كانت أساس التعامل بينهم . حتى نصحح على ضوئها مفهوم العبادة التى ما كلفنا الله تعالى بها إلا لنتسلح فى ضوئها بأخلاق السيادة .. والتى نحاول اليوم تجليتها تبصرة وذكرى .

قيمة الستر

أحدث رجل فى الصلاة خلف عمررضى الله عنه.

فلما سلم عمر قال :

أعزم على صاحب الظرطة إلا قام ... فتوضأ... وصلى.

فلم يقم أحد.

فقال جرير بن عبدالله :

يا أمير المؤمنن :

اعزم على نفسك . وعلينا أن نتوضأ.

ثم نعيد الصلاة .

فأما نحن :

فتصير لنا نافلة .

وأما صاحبنا . فيقضى صلاته .

فقال عمر :

رحمك الله !

إن كنت لشريفاً فى الجاهلية . فقيها فى الإسلام .

لقد فرض على واحد من الصحاب هذا الموقف المحرج ..

ومما زاد فى إحراجه أن الإمام كان عمر رضى الله عنه .. والذى أقسم على من أحدث أن يجدد وضوءه..

وفى هذه اللحظة التى يبدو فيها الإمام صارم الملامح .. فلا كلام بعدما تعطلت لغة الكلام !

ولكن " **جرير بن عبد الله** " رضى الله عنه ينقذ الموقف بهذا الاقتراح الإيجابى .. والذى حصل به على تنويه عمر .. الذى جعل من جرير تاجا على رءوس الأشراف .. من حيث جف به عرق الرجل المحدث . والذى عاد إلى بيته مجبور الخاطر .. محملا بمنة مجتمع لا يعرف الشماتة .. وإنما شرعته الستر والغفران .. والتماس الأعذار للناس ..

ولقد رأينا فى صبانا كيف كان الرجل يخطئ فى اللفظ ينطقه ناسيا أو غافلا.. فيتكفل المستهترون بتثبت هذا الخطأ ونشره .. حتى يصير عنوانا على العائلة كلها ... و إلى الأبد !!

وإذا بك أمام ناس ؛

[صناعتهم الجدل . وبضاعتهم الوعود . وغايتهم المناصب :

أكثرهم يقول الحق .. وهو يفعل الباطل . ويذكرون الأمة وهدفهم الغنيمة ..

يخطبون .. ما أسعفهم الريق ..

ويكتبون .. ماواتاهم المداد]

أما و عمر حى .. أما والحياة حياة ..

فقد كان الستر شرعة الجماعة ومنهاجها..

وإذا كان الأشرار يريدونك شريرا مثلهم .. لتكونوا سواء ..

فإن الأخيار يرجونك مثلهم خيرا.. وكان هذا مظهر ولائهم للإسلام الذى لا يريدونه ضعيفا بضعف واحد من أتباعه !

فكيف إذا كان من رموزه ؟!

همم معلقة بالثريا

يقول الحق عزوجل :

﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾[١]

في ساحات الحكام .. ربما حاول الماكرون اتخاذها مجالا .. يحققون فيه مآربهم :

يتسلحون بكل ما أتيح لهم من مكر ودهاء .. كي يملأوا الجيوب .. ليستولوا بعد ذلك على القلوب .. قلوب فريق من الحكام الذين يقعون في شباكهم .. فيعطونهم ماليس لهم بحق ..

ومن أجل ذلك تسمع من يقول لك :

[من كان له صلة بالحاشية .. فلا داعي لامتلاكه رأس مال] ؟!

ثم من يقول لك :

[إذا كنت تحصل على اللبن مجاناً .. فأنت في غنى عن أن تقتني بقرة]

إلى غير ذلك من المقولات التي تكرس الحرام في النفوس ثم تزهد في الحلال الطيب .. في نفس الوقت .. وبنفس القوة .

ولأن الحاكم هو المسئول الأول عن إشاعة الرشوة ..

لأنه هو الذي يختار عماله من حوله .. فهو القادر بحكم سلطانه على التمكين للخير والشر معا .. فإن الآية الكريمة تركز عليه .. وبقوة :

﴿ وتدلوا بها إلى الحكام ﴾

---

(١) سورة البقرة : ١٨٨

من بلاغة الآية الكريمة

إن المسئول قد لا يمد يده ليأخذ ثمن خيانته .. إذ يتكفل بذلك حاشية السوء من حوله ..

ولكن الآية الكريمة تقتحم عليه ستره .. لتقدمه إلى نفسه ثم إلى الناس متلبسا بهذه الرشوة .. فى صورة لا تحسد عليها :

فالذى يقدم إليه الرشوة « فوق » بينما هو . « تحت » وإن كان يجلس على الكرس العالى .. الدوار..

وذلك قوله تعالى :

﴿ وتدلوا بها إلى الحكام ﴾

ولنسائل اللغة .. لتزيد هذا المعنى إيضاحا:

تقول اللغة :

" رشا الطائر فرخه " يعنى : أطعمه .

وهذا هو الوضع الطبيعى:

فالطائر الأم « فوق »

وفرخه : « تحت » .. يستقبل من أمه : أمنه الغذائى وأمنه النفسى معا:

أمنه الغذائى : بهذه الحبات التى يتلقاها بمنقاره ..

ثم أمنه النفسى بهذا الدفء الذى يحسه .. وهو آمن فى ظل جناحين منشورين عليه من أمه الرءوم .

وهذا هو الوضع الطبيعى .. وفى مملكة الطيور .

وغير الطبيعى فى مملكة الإنسان

وكيف ؟

ذلك بأن الذى يقدم الرشوة « فوق »

والمسئول المرتشى « تحت »

يبسط يده .. ليتلقى من « فوق » من مرءوسه ما ليس له بحق !

وإذا صورت له أوهامه أو خدامه أنه « فوق كرسيه العالى » وخلف مكتبه الوسيم يأمر وينهى .. فإنه فى الحقيقة ذليل خاضع ..« منفعل » وليس « فاعلا ».

وهو الذى فعل بنفسه هكذا .. حين اختار أن يكون عبدا وكان بإمكانه أن يكون سيدا !

ومن المؤسف حقا :

أن معنى الرشوة .. الذى عرفناه فى مملكة الطيور .. طبعيا.. هذا المعنى يفسد .. بل ويضمحل .. لما انتقل إلى « أبجديات » الإنسان ..

الإنسان الذى تدخل بطمعه .. فاعوج بيديه ما كان مستقيما .. ورحل من الرجاء فى الإصلاح ما كان مقيما ! وذلك حين تبادل المسئول والمرءوس المواقع ..

فضاعت المعالم .. و عمت المظالم .. واختلط الحابل بالنابل .. وصار الأمر على ماقيل :

فى زمن : اختلط فيه الملح .. بالسكر .. وتساوى الطين مع العنبر فأصبحنالا ندرى فرقاً بين اليابس والأخضر : نعبد فيه الخوف .. ونعشق الزيف فى زمان ردىء.

لا تدرى فيه : إن كنت الفاعل .. أو المفعولا ..

إن كنت القاتل فيه .. أو كنت المقتولا !!

وما خفى .. فهو أعظم.

وإذا كان ذلك هو المعنى .. فإن المغزى أشد غضاضة ؟!

إن المرتشى . مهما كان موقعه رفيعا .. إلا أنه كالدلو : ينحط فى البئر .. كما ينحط الدلو : علوا .. وانحطاطا .. بغير تثبت فى الحكم .. ولا روية فى التفكير ..كهذا الدلو الهابط الصاعد .. فى حركة لا يستطيع عنها حولا ..

وفيه من خصائص الدلو أيضا :

أنه ينزل إلى البئر خفية .. ليستخرج منه الماء..

ويعنى ذلك :

أن المسئول .. فى يد الراشى .. والذى يدلى دلو رشوته للحاكم : خفية .. ليستخرج ظلمه .. فيأكل مالا .. ويحطم آمالا .. بما بذل من رشوة يحاول أن يحق بها باطلا ويبطل بها حقا !

وعلى قدر خراب ذمة المسئول .. يكون حجم المال المبذول !

فالرشاء هو : الحبل .. الذى تمسك به الدلو ..

والراشى يطيل الحبل .. كلما كان ماء البئر بعيدا..وقليلا فى قاع البئر..

وهو نفس المشهد الذى نلمحه .. وعلى الطبيعة .

فعندما تخرب ذمة المسئول ..فإنه عندئذ يكون أكثر طمعا فى المال .. ومن أى سبيل .. ومن أجل ذلك يكون الفوز برضاء أبعد منالا .. ولا يحققه إلا من كان أكثر مالا!!

إن « الفوز » عندئذ من نصيب من يدفع أكثر .. لأن المبلغ اليسير لن يملأ عينا .. لا يملؤها إلا التراب ! ومن ثم يحاول الراشى أن « يطيل الحبل » أى : يزيد

فى « المبلغ » حتى يتسنى له أن يصل إلى مكمن الرضا فى قلب المسئول !

هذا المسئول الذى ، يبيع حب الناس .. وتقدير الناس .. بثمن بخس دراهم معدودة ..

صورة من الماضى

كان الرجل الصالح يقول فى دعائه :

اللهم اجعلنى من الأقلين ..

فلما سئل عن سر هذا الدعاء .. رد السائلين إلى قوله تعالى :

﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ وأمل الرجل أن يكون من هذا القليل الصبور الشكور ! فرارا من كثرة يكمن غناها **بالمال** .. وانحيازا إلى قلة يكون غناها .. **عن المال !!**

ومن الصور المحفورة فى ذاكرتى [١] تلك الصورة .. التى صدرت فيها حركة تعيين بعض المسئولين فى مناصب مهمة وتنافس المتنافسون فى الإعراب عن سرورهم بفوز المسئول بالمنصب المأمول . إلا مسئولا واحداً .. لم أر واحداً هنأه ؟؟! حتى ممن هم مشمولون برئاسته ؟!

وقلت :

حقا إنها الشهادة له بأنه : القوى الأمين .. الذى استجمع عنصرى الكفاية والأمانة .. فأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ومناصبهم .. فلم تكن بهم حاجة إلى خوف منه .. أو تزلف إليه .

لقد أطال المهنئون لغيره .. أطالوا له الحبل .. فوسعوا مساحة التهنئات على

---

(١) كان ذلك فى الخمسينات .

صفحات الجرائد .. لأن مياه بئره فى ظنهم بعيدة .. ولابد لكى تنال لابد من حبل طويل .. حتى يمتلكون بهذه الحبال أعناق الرجال ! [١] ..

أما هو : أما هذا القوى الأمين :

فكل أتباعه يعرفون أنه مشغول بالعمل ..

العمل الذى لم يترك له فراغا يستقبل فيه المديح !

إنه مشغول بعمل .. لا ينوه به المتزلفون على صفحات المجلات .. وإنما هو مولع بكل ما يكتب له :

﴿ فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة . بأيى سفرة كرام بررة ﴾[٢]

إن عيون الخير تجرى من بين يديه ومن خلفه .. تجود بالماء عذبا فراتاً .. فمن شاء .. فليغرف ما شاء.

فهو البحر من أى النواحى أتيته فلجته الإحسان والجود ساحله

وما دامت العين سحاء .. تفيض بالماء .. فلا داعى إلى أن نطيل « الرشاء » بل لا حاجة بنا إلى الرشاء .. ما دمنا نملك الماء .. وبلا عناء !

---

(١) ربما يتحمل المهنئون المسئولية وحدهم .. بما ظنوا وبما عملوا .. أما المسئول .. فقد يكون بنجوة من العتاب .. على أمر لم يطلبه لنفسه .. وانما فرض عليه فرضاً.

(٢) سورة عبس

أهميـة الحاشيـة

ولكن الحاكم العادل .. من فرط حرصه على أن تظل قيمه أصيلة نبيلة .. عاملة آملة فى دنيا الناس .. من أجل ذلك يحسن اختيار حاشيته .. التى تعينه على أمر الله .

وقد تحدثت إليه ذات يوم شاكرا له استقدامه واحدا من رجاله ليكون إلى جانبه .. فقال :

لأنه رجل « متدين »..

إنه يختار من على شاكلته .. واختيار المرء دليل عقله .. إنه لا يطلب من يبتغى من وراء عمله « أجرة » وإنما من يبتغى معه « أجرا »..

الـدرس المـفـيد هنا :

لقد تعلمنا من دروس الحياة أنه لا يكفى أن يكون المسئول فى ذاته أمينا .. وعليه مع ذلك أن يختار من على شاكلته فى الأمانة وقوة الإرادة ..

وفريق العمل .. إذا كان على هذا المستوى .. فقد تمت كلمة ربك صدقا وعدلا .

لقد صار الحاكم - بحسن اختياره - فى الحصن الآمن ..

وكان من حاشيته المؤمنة فى قرار مكين ..

قال الأوزاعى لمنافق من حاشية « أبى جعفر المنصور » لما قال له : رفقا بأمير المؤمنين .. فقد أتعبته !!

قال له الأوزاعى :

خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين .. ثم أردت أن تحول بينه وبين من أراد

نصيحته ؟!

ثم اتجه إلى أمير المؤمنين محذرا :

يا أمير المؤمنين

إن هؤلاء اتخذوك سلما لشهواتهم ..

فأنت كالآخذ بالقرنين .. وغيرك يحلب !

فاتق الله :

فإنك ميت .. وحدك .

ومحاسب .. وحدك .

ومبعوث .. وحدك .

ولن يغنى عنك هؤلاء من ربك شيئا

ولقد انتصرت إرادة الخير على لسان « الأوزاعى » الناصح الأمين .. والذى نحى حاشيه السوء حتى لا تنفرد بالقرار فى الديوان العام.

وانحسر المنافقون .. المتاجرون بالشعارات .

أما بعد :

فما تزال حكمة الحكماء تدوى .. منذرة محذرة من حاشية السوء .. والتى ينهدم بها المعبد على كل ما فيه ومن فيه ..

تلك الحكمة التى تقول لكل مسئول :

لا تصاحب الفاسق :

فإنه يبيعك بدرهم .

ولا البخيل :

لأنه يخذلك فى ماله وأنت أشد ما تكون حاجة إليه .

ولا تصاحب الكذاب :

لأنه : يقرب البعيد .. ويبعد القريب

ولا تصاحب الأحمق :

لأنه يريد نفعك .. فيضرك !

ولا تصاحب قاطع رحمه :

فمن لا خير فيه لأهله .. لا خير فيه للناس !

وهنيأ لمن أرسل ماله وأعماله إلى هناك مدخرة له فى « صحف مكرمة » لتسلمه فى النهاية إلى جنات تجرى من تحتها الأنهار :

﴿ أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ﴾ [١]

أما « أنهار » الصحف التى تضج بالتهانى العذاب .. والأمانى الكذاب .. فإنها مثل « بحور علم العروض » :

إنها أبحر .. ولكن بغير ماء !!

(١) سورة محمد الاية : ١٥.

من هو السيد ؟

من رزقه الله مالا .. فبذل معروفه .. وكف أذاه فذلك السيد

فى مجال التطبيق :

وكان هناك رجال استحقوا هذه السيادة بما بذلوا ..

وبما صبروا ..

ومنهم : **قيس بن عاصم** :

قيل له : بم سدت قومك ؟ قال .

لم أخاصم أحدا .. إلا تركت للصلح موضعا

إنه لا يقطع خط الرجعة .. ويحتفظ بمثل الخيط الحريرى .

فربما تغيرت الأحوال .. وعادت النفوس إلى مجاريها ..

والذى كان خصاما .. صار ودا ووئاما

والذى كان انقساما .. صار أعمالا جساما

ومن الأسياد : عبدالله بن جدعان :

كان كريما .. ولما افتقر لم تطاوعه نفسه على البقاء فى بيت كان بالأمس موئل المحتاجين . ثم دخل فى شق فى الجبل راجيا أن تبتلعه حية ..

فعثر على كنز .. فكان أسعد الناس به ..

لا من حيث كونه ثروة يفاخر بها ..

لا .. ولكن لأن نفسه الهاربة من الواقع الأليم عادت إليه لتستعيد مجدها المتمثل فى ممارسة هوايته المفضلة وهى : الكرم ..

وكم كان سعيدا عندما خرج إلى الناس من مغارته مناديا :

من أراد لحما .. فليأتنا !

ألا إن السيد حقا .. من يكون للأولياء .. كالغيث الغادى .. وعلى الأعداء : كالليث العادى !

ومن الأسياد : الأحنف بن قيس :

قيل له يوما : ما أحلمك !!

فقال :

لست بحليم .. ولكنى أتحالم ..

لقد فتن الناس بحلمه الذى كان مضرب الأمثال .. وكان من الممكن أن يركب مع مريدية الموجه منتشيا بما يضفون عليه من حلم كان له طبعا ..

ولكن الرجل ينفى عن نفسه الحلم طبعا .. ثم يثبته تطبعا .. ذاكرا من فلسفته فى مواجهة العدوان لا بمثله .. وإنما بالحكمة والاصطبار ..

وذلك قوله :

والله إنى لأسمع الكلمة .. فأجم (أى أمسك عن الكلام) لها مليا ..

ما يمنعنى من الجواب عنها إلا خوف أن أسمع شرا منها وهكذا يسكت شهوة الانتقام فى نفسه . حتى يوقف موجة العدوان .. فإذا الذى شتمه .. كأنه ولى حميم

من إنسانيات عبدالله بن جعفر

كان قد أسلف الزبير ألف ألف .

فلما مات الزبير جاء ابنه فقال له :

لوالدى عليك ألف ألف ؟!!

أى إنه عكس القضية !

وقال له ابن جعفر :

هو صادق .

إلا أن ابن الزبير عاد فعدل الوضع ..

لكنه أعطى ابن جعفر أرضا سبخة . لا تزرع .. فقبلها منه ..

ولكن الله تعالى عمرها له

[اللهم أعط منفقا خلفا]

جاءته امرأة بدجاجة مسموطة - مشوية - وقالت له :

هذه الدجاجة كانت مثل بنتى . فآليت ألا أدفنها إلا فى أكرم موضع أقدر عليه ..

ولا والله ما فى الأرض أكرم من بطنك ! فقال : خذوها وكافئوها .. فجعلوا يزيدونها حتى قالت : بأبى أنت : إن الله لا يحب المسرفين . ولم يكن أجمل من المرأة فى حيلتها وذكائها إلا ابن جعفر الذى قبل منها الدجاجة جبرا لخاطرها ..

ولقدكسد السكر عند أحد التجار..

وبينما أصحاب الدفاتر القديمة كانوا هم والزمان على هذا التاجر .. والذين قالوا :

إن ماأصابه من عمله ..

ثم قالوا : وكذلك كان عمه .. وخاله من قبله .. فلن يشتريها ؟!!

وبينما هم كذلك .. إذا بابن جعفر يأمر مديره المالى فاشترى السكر كله . على أن يكون فى متناول الناس جميعا .. فمن شاء أخذ منه ..وبلا حساب .

وإذا كان بعض المديرين اليوم يحتجزون هذه السلعة لتوزع على محاسيبهم . فإن ابن جعفر .. وإن مديره المالى .. كانوا أسخياء أتقياء :

فأنقذ الله بهم التاجر من ورطته ..

وقضى الله بهم حاجة المحتاجين ..

حـــوار

قال لصاحبه وهو يحاوره :

أنت تستطيع أن تمدح .. لكنك لا تستطيع الهجاء !

فقال صاحبه :

من بنى البيت قادر على هدمه فى لحظة !

فقال له ..

ولماذا لا تهدم ؟

فقال:

لنا عزة .. تمنع من الاعتداء علينا

وفينا حلم .. يمنعنا من أن نظلم غيرنا

وهكذا يستجمع الرجل :

خلق الحلم .. هذا السراج .. الذى يحتفظ به فى قلبه وهاجا .. قبل أن تطفئه عاصفة الغضب .. إنه إذن سيد نفسه .. يملك نفسه .. فكان فى الناس سيدا .. ورحم الله معن بن زائدة والذى قرر أن يعطى من هجاه ألفين .. وأعطى من مدحه أربعا .. وكان فى الحالين رجلا ..

قيمــة الـنجـدة

كانت قيمة « النجدة » سليقة للعربى الذى كان يخف لإنقاذ أخيه المكروب .. فور سماع استغاثته .. وذلك ما أشار إليه الشاعر القائل :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   فى النائبات على ماقال برهانا

ومـا يزال الفـلاحـون فى القـرية يفـزعـون لإنقـاذ « البـقـرة » التى تسـقط فى الساقية . ولا يسألون : بقرة من ؟؟!

أما اليوم .. فإنك تعجب كيف تتقدم الإنسانية .. ولكن إلى الخلف !!:

فمن مقررات المدنية أنه :

إذا شب حـريق فى حـجـرة بهـا طفل .. وتمثـال .. ثم لـم يكن فى الإمكان إلا إنقـاذ واحـد فـقط .. فـلا تـتـردد فى إنقـاذ التـمـثـال !؟ لأن الطفل يعـوض .. أمـا التمثال .. فلا يعوض ! وهكذا صار التمثال أغلى من الرجال ..

وقـد سرت هذه العـدوى إلى القـرية التى كـانت تخف لنجدة البـقرة : إنهـا لا تتحرك بنفس القوة لإنقاذ صاحب البقرة إذا سقط فى البئر !!

وهكذا صـار العـالم اليـوم .. صـار تلك القـريـة الظالمة التى دخلهـا أعـرابى غـريب.. فهاجمته كلابها .. فلما أراد أن يأخذ حجرا ليردعـها .. لم يجد حجرا .. فقال :

لعن الله أهل هذه القرية :

يطلقون الكلاب .. ويربطون الحجارة !!

وتقترب من الموقف .. ليطالعك بهذه الدروس :

هناك جيران فى السكن .. وزملاء فى العمل ..

وعند الشدائد تظهر المعادن .. معادن جيران وزملاء .. هم بحسب العادة أصدقاء .. ولكنك معهم لا تحتاج إلى أعداء ! لأنهم يفعلون كل ما يفعله أعداؤك.. وصار أمرهم على ماقيل :

أشبهت أعدائى فصرت أحبهم   إذ صار حظى منك .. حظى منهمو

ثم تتلفت حولك فلا ترى إلا حاسدا على نعمة . أو شامتا فى نكبة ..

ثم تهتف أين الأصدقاء العزاز ساعة المحنة .. فلا ترى أحدا : إنهم يجلسون على كراسى المتفرجين ..

أما العدو : مع أنه واحد .. إلا أنه أقوى من الجميع .. بما يملك من خداع وبيل وباع طويل .. حين ينفرد بالفريسة .. يقيدها من الخلف والتى تخلى عنها أحبابها .. مكتفين بالدموع والآهات خلف الضلوع .

وتطالع من خلال ذلك درسا آخر :

فبعض أصحاب المروءات مثل الحديقة .. تفتحت أبوابها : فالناس يرتادونها.. ثم لا يدفعون على الدخول ثمنا ..

ومن ثم لا يحسون بقيمتها .. بل قد يستهينون بصاحبها !!

ولا بأس .. فالناس أبناء عصرهم :

لو قلت لهم : هذه فاكهة مضرة لتركوها ..

ولو قلت لهم إن خذلان مسلم جريمة .. لأصروا على خذلانه !

إنهم أناس

تخفيهم جلودهم .. ومن وراء هذه الجلود أسراب من الطيور الجارحة .. أو الكلاب النابحة !

أهـــل الـنجـدة

وإذا كانت هناك عملة مزيفة .. فهناك أيضا شهامة مزيفة :

شهامة ذلك الرجل الذى يحاول حماية الضحية من ذئاب البشر .. لا غيرة على الفضيلة .. وإنما لتبقى له وحده !

أما رجل النجدة الحق .. فقد كان أحد بصرا .. وكان أسد نظرا .. حين اختار قيمة التضحية مفتاحا لشخصيته ..

وأعرف من أصحاب المروءات رجلا :

سليقة النجدة فيه ضاربة جذورها الذهبية فى كيانه كله . فإذا حاولت مدحها..

فبأى لسان تمدحها ..

وبأية كلم تشرحها..

إنها فوق الشرح .. وفوق المدح

وإذا كان هناك من يقتصر على أداء الصلاة .. ولا عليه من ثمراتها ..

فقد كان من أهل الصلاة من تجاوزها إلى آثارها من الصلات ..

من أجل ذلك فنحن نحبه .. ولا يكفى أن نهواه :

لأن الهوى : محله القلب ..

والقلب .. محله الحب !!

وما أجدره بهذا الحب ..كفاء ما يملك من مبادئ ..

لا تباع أبدا فى أسواق السمسرة !

إنه البحر .. من أى النواحى أتيته :

متعدد المواهب التى لا تستطيع إحصاءها ..

وأخلاقه راسخة لا تستطيع سبر نمورها ..

ولو تخيرت واحداً منها .. لفصلت الجوهرة عن أختها ..

ثم هى فوق مدحك لها ..

ويكفيك أن تذكرها .. لتدل الناس .. عليها .. ليقتدوا به فيها! ..

أو كما قال أدباؤنا :

رآها صاحبها - لا تميزا أو تفرءا - وإنما تراءت له نعما من الله تعالى عليه.. فأحس بأنها أكبر من أن يحملها .. فضاعف من عمله شكرا لها .. أو كما قال علماؤنا ..

وهو فى هذا الخلق ماض على سنة رسوله الذى قال : أفلا أكون عبدا شكورا..

شكورا : مبالغة ، أى دائما .. وليس مجرد شاكر : يشكر على سطر ، ويترك سطرا ..

وفى الوقت الذى يحبط فيه الآخرون امتيازاتهم بالنكران .. يقيدها هو بالشكران ..

إنه واحد من معدن يعز وجوده فى زماننا ..

من أهل العفاف وهم الأشراف .

ومن شرفهم :

أنهم إذا طلبوا الغنى .. طلبوه عن طريق القناعة .. لأنها الغنى الذى لا ينفد..

الجوع عندهم .. خير من الخضوع ..

والورع فى دينهم .. أعز من الطمع .

إنهم المؤمنون : والمؤمن :

بشره .. فى وجهه .

وحزنه .. فى قلبه

يمسك الفضل من لسانه .. وينفق الفضل من ماله ..

تدخل عليه راجيا .. ثم تخرج راضيا ..

وليس هو من أولى النعمة المرفهين .

إنه رجل المواقف : لا يحرص على العلم احتشادا للمعانى فى الذاكرة .. وإنما يترجم قليل العلم ليكون أعمالا كبارا :

وهو بهذا المعنى حجة على علماء كبار فى دنيانا :

يستكثرون من العلم :

يزاحمون به النظراء .. ويستكبرون به على الجهلاء.

وآخر ما يفكر أحدهم فيه : أن يعمل بهذا العلم .

وفى هذا الصنف من الناس يقول أحد الصالحين :

ياهذا :

إذا أفنيت عمرك فى جمع السلاح .. فمتى تقاتل ؟!!

ألا ما أجدر بعض من يتصدرون المجالس أن يعودوا إلى الحقل .. فمكانهم هناك خلف المحراث !!

ولقد نظلم صاحب المحراث الذى هو أسعد بموقعه عبر الحقول من المرفهين من عباد الله .. الذين يعيشون فى مربعات مسلحة !!

أما الفلاح : فتكفيه خيمة :

إذا أراد الصوت الشجى .. فالعصافير من حوله تشجيه .

وإذا أراد المشهد الجميل .. فبين يديه باسقات النخيل .. تجرى من تحتها الأنهار ..

وتحت رجليه .. وعن يمينه وشماله « صيدلية الطبيعة » فكل حبة فاكهة .. وكل ثمره خضرة .. تزوده بالطاقة .. وتحميه من عاهة !

إن هذا الفلاح البسيط لأسعد منى .. ومنهم حالا ..

ويرجى أن يكون أحسن مآلا ..

قيمة الستر
فى قصور الحكام

وبقيت قيمة « الستر » تواكب الزمان .. حتى وجدناها فى ردهات قصور الحكام التى هى مظنة الاتهام .

كان « معديكرب بن أبرهة » جالسا مع عبدالعزيز بن مروان على سريره.

فأتى بفتيان قد شربوا الخمر . فقال :

يا أعداء الله .. أتشربون الخمر ؟!

فقال « معديكرب »

أنشدك الله ألا تفضح هؤلاء ، فقال :

إن الحق فى هؤلاء وفى غيرهم واحد .

فقال معديكرب :

ياغلام :

صب لى من شرابهم فى القدح ! فصب له فشربه ، وقال :

والله ما شربنا فى منازلنا إلا هذا .

فقال عبدالعزيز : خلوا عنهم .

فقيل له حين انصرفوا :

شربت الخمر ؟!! فقال :

أما والله إن الله ليعلم أنى لم أشربها قط :

لا فى سر ولا علانية . ولكنى كرهت أن يفضح مثل هؤلاء بمحضرى !

من دروس الموقف

لقد شرب الفتيان الخمر فعلا .. وتمت أركان الجريمة .. وهاهم أولاء فى ساحة الحكم ينتظرون العقاب الرادع

وكان من حسن حظهم .. بل من حسن حظ المجتمع كله أن كان واحد من حاشية الحاكم حاضرا .. هو «معديكرب»

وواضح أنه لم يكن يعرف من الفتيان الشاربين واحداً ..

لكن الذى كان يعرفه : ضرورة ستر هؤلاء الشباب ..

الذين لاح له منهم أنهم غير محترفين ولا مستهترين .. ومن ثم فإطلاق سراحهم .. إنما كان فرصة لتحريرهم من معصية فرضت عليهم .. ولن يعودوا لمثلها أبداً .

ولما أحس من الحاكم صرامته فى إنفاذ حد الله .. لم تنطفىء جذوة الإشفاق فى قلبه الكبير .. وقرر أن يدخل بنفسه طرفا فى قضية لا ناقة له فيها ولا جمل .. فشرب الخمر فعلا .. ليقف معهم داخل القفص ثم ليواجه معهم مصيرا واحداً .

ونجحت خطة الرجل الذى كان يدرك من إنسانية الحاكم ماسوف يكف يده عن العقاب ..

والملفت للنظر هنا أن الشافع لم ير الخمر فى حياته .. وكان المتوقع أن يكون على رأس المشجعين لردع هؤلاء الشباب الذين اقترفوا ما عافه طبعه النظيف .. ولكنه كان طليعة الراغبين فى عفو يغسل أوضار شباب .. ندخرهم للمستقبل .. بدل أن ندمرهم بذنب لم يدركوا خطورته .

إنها قيمة « النجدة » تنحدر من الأسلاف إلى الأخلاف .

هذه النجدة التى عناها الشاعر القائل :

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهمو

لأية حـــرب .. أو لأى مكـــان !

إنها تدفعهم تلقائيا .. فطرة .. إلى نصرة من يستنجد بهم .. ثم لا يسألون عن سبب هذه الحرب ..

كما وأنهم لا يسألون عن مكانه .. أقريب أم بعيد .

وهكذا تتواصل الأجيال .. بعزمات الرجال .. رجال مثل «معديكرب» والذى نوه به الشاعر قائلا :

رحلت .. فلـــم أفـرح بـأوبة آيـــب

وأبت .. فلم أجزع لغيبة غائب

قدمت .. فأقدمت النهى تحمل الرضا

إلى كل غضبان على الدهر عاتب

فعادت بك الأيـام زهـرا .. كـــأنما

جلا الدهر منها عن خدور الكواعب

وإذا كنا- باسم الإسلام - نتحفظ على هذا الاندفاع .. بلا وعى..

فإن بقية من الإعجاب تبقى فى صدورنا .. فى زمان استنوق فيه الجمل .. زمان نفتقد فيه الإخلاص .. فإذا هو ذاهب مع العنقاء .. ليكون سرابا ..

إننا نجـأر بالشكوى من تقطع الصلات بين الجـيلين .. ثم لا نخطو الخطوة الأولى فى الاتجاه الصحيح بمثل ما فعل « معديكرب» والذى أكدت همته أن مخلصا واحداً يكفى .. وإلا .. فما أكثر أصدقاء الطمع .. إنهم يعدون بالألوف .. ولكنهم تلك «العملة المزيفة » لاقيمة لهم !

ويبقى أن يتجلد المبتلون .. إن لم يجدوا من يقف معهم .

وليعلموا أن المصائب هى «الغربال» الذى يميز الله تعالى به بين الأصالة .. والحثالة :

وإذ تنزل البلايا كأنها الليل البهيم يرخى سدوله .. فإن هذا الليل وإن حجب « الدخان» .. فلا يرى .. فإنه لن يستطيع أن يخفى النجم السارى .. والذى يخترق بأشعته النفاذة سواد الليل .. ويفرض عليه وجوده !

ألا وإن المحنة فعلا أن تتجمد ملكاتك فى مواجهة الأحداث .. أن تتوقف عن التفكير فيما أصابك ..

ذلك بأن العقل يتنامى بالتفكير .. ويخمد بالإهمال ..

والمؤمن حقا من يجمع أطراف ملكاته وقدراته .. ليتعامل مع الظروف الطارئة..

وبينما تطير نفس الجبان شعاعا .. فإن نفس المؤمن تصبح تلك الجوهرة الثمينة .. والتى تخرج من وهج الأحداث أكثر نصوعا .

إن الأحداث العظام .. تصنع الرجال .

فلابد من خوض الغمرات .. حتى تفوز .

أما المتفرجون على الأحداث دون الدخول فيها .. فقد يريحون أنفسهم من المتاعب .. ولكنهم لا يعودون إلى بيوتهم بشئ !

وإنهم الكسالى :

الذين يرون الشجرة تثمر دنانير ولكنهم التعساء .. لا يهزونها ..

لقد فاز الشجعان بالسعادة !

وتعجب لأحداث الحياة . ولنارها : التى تحرق الخشب ..

وهى هى نفسها التى تصقل الحديد !

قــــوة الحـــق

وإذا سول الشيطان للقوى أن يظلم .. فما هو واجب المظلوم ؟

إن البكاء لا يجدى ..

والمهم هو : إحساسه الحاد بأنه مظلوم ..

ومن شأن هذا الإحساس أن يحركه .. بقوة نابعة من شعوره بأنه على الحق.

ذكــروا فى ذلك أن **«قــرعــان»** كان فتاكا .. سارقا .. سرق جملا لعربى ضعيف..

فلحقه هذا الضعيف .. فجبذ قرعان جبذة سقط بها على الأرض .

فقيل له :

كبرت يا قرعان !

فقال :

والله ماكبرت .. ولكن الرجل جبذنى جبذة محق ..

ألا إن لصاحب الحق مقالا !

زكـــاة الأخـــوة

كان « سعيد بن عمرو » مؤاخيا ليزيد بن المهلب .

فلما حبس عمر بن عبدالعزيز «يزيد» . ومنع من الدخول عليه . أتاه صديقه سعيد بن عمرو فقال :

يا أمير المؤمنين :

لى على يزيد خسمون ألف درهم . وقد حلت بينى وبينه . فإن رأيت أن تأذن لى فأقتضيه ؟

فأذن له . فدخل عليه السجن فسر به يزيد .

وقال له :

كيف وصلت إلى ؟ فأخبره . فقال يزيد :

والله لا تخرج إلا وهى معك .

فامتنع سعيد .

فلحق يزيد ليقبضها . فقال « عدى بن الرفاع » فى ذلك :

ولم أر محبوسا من الناس واحـدا

حبا زائرا فى السجن غـير يزيد

« سعيد بن عمرو » إذ أتاه : أجازه

بخمسين ألفا .. عجلت لسعـيد

وهكذا لم يفقدهم الحبس أريحيتهم التى لم تتخل عنهم حتى فى ظلمة السجن..

لقد كان سعيد ضيفا كريما .. وكان يزيد أكرم منه ..

وكأنى بيزيد يقول :

وإنى لحلال : بى الحق أتقــى

إذا نزل الأضياف أن أتجــهما

إذا لم تذد ألبانها عن لحومها

حلبنا لهم منها بأسيافنا دما !!

لقد كان الكرم طبيعة .. تفرض على صاحبها أن يكون سخيا .. وقبل ذلك أن يكون تقيا .

بل كانت جبلة الكرم تسرى بالعدوى من الصاحب إلى صاحبه على حد تعبير القائل :

لمست بكفى كفه أطلب الغنى

وما خلت أن الجود من كفه يعدى

وإذا كان يزيد بن المهلب قد قضى دينه فى ظروفه الصعبة ..

فإن طلحة بين عبيد الله .. كان يبذل فطرة السخاء فيه ..

هذه الفطرة التى كانت تعبر عن نفسها ولا تسأل عن دين المحتاج .. ولا عن جنسيته ..

وربما عبرت عن نفسها .. وعلى نفس المستوى .. مع الأعداء ..

فكانوا مع الأصدقاء سواء :

لقد فدى طلحة رضى الله عنه عشرة من أسارى بدر .. وجاء يمشى بينهم

وقد سئل بالرحم يوما . فقال :

ما سئلت بهذه الرحم من قبل ..

ثم قال لمن سأله :

قد بعت حائطا لى - بستانا - بتسعمائة ألف درهم . وأنا فيه بالخيار :

فإن شئت ارتجعته .. وأعطيتكه .

وإن شئت أعطيتك ثمنه

إنه - وهو مالك الموقف - لم يفرض على الرجل اقتراحا معينا .. وإنما كان من سخاء العرض أن يخيره .. ليختار ما يشاء ..

وإذا كنا نسمع اليوم عن معارك الجيران .. التى قد تصل بهم إلى ساحات المحاكم .. فإنا نذكر هذه الأريحية التى حمت علاقة الجيران من التآكل .. فكانوا إخوانا متحابين ومن حبهم أن يبادروا بالمعروف .. دون أن يلجئوا جارهم إلى ذل السؤال :

بلغ **ابن المقفع** أن جارا له يبيع دارا له .. لدين ركبه .

وكان يجلس فى ظل داره . فقال :

ما قمت إذن بحرمة ظل داره .. إن باعها معدما وبت واجدا ..

فحمل إليه ثمن الدار . وقال :

لا تبع !!

وهكذا كان نوال ابن المقفع أفضل النوال على ما قيل :

أفضل النوال ما كان قبل السؤال :

فإن الفضل كل الفضل فى ذلك :

النوال .. الذى يغنيك عن السؤال ..

وقد يرتقى « الإيثار » إلى سماء لا تطاولها سماء .. حين يشترى رجل جارية جميلة .. وتحين لحظة العودة إلى منزله .. ثم تفرض عليه أريحيته أن يخص بها شابا رآه أحق بها منه ؟!

(اشترى عبيد الله بن أبى بكرة جارية نفيسة فطلبت دابة تحمل عليها .. فلم توجد .

فجاء رجل بدابة فحملها .

فقال له عبيد الله :

اذهب بالجارية إلى منزلك)

وإذا فاز الفتى بالجارية الجميلة التى كانت رزقا ساقه الله تعالى إليه ..

فقد كان فوز « ابن أبى بكرة » مبينا :

لأنه انتصر فى معركتين شرستين

انتصر على غريزة التملك ..

وانتصر كذلك على غريزة الجنس

إن شكر هؤلاء الماجدين عظيم فى جانبه المادى

فكيف بناحيته الإنسانية ؟

(مهما قصرنا الشكر عليهم .. ففى شكرنا قصور عن الوفاء بحقهم ..

وكيف يتسع العمر لنعم متجددة ..

كلما أحدثت لها شكرا .. جددوا لك أضعافها ..

لقد عاد الظن يقينا ..

والأمل فيهم مبلوغا ..

وإذا كان لكل شئ رأس .. فإن رأس المعروف : تعجيله ..

وقد بذلوه .. وعجلوه ..

فكانت لهم الحسنى .. بهذا البذل :

يسترون به الحاجة .. وهذا التعجيل : يحفظون به الكرامة)

إن عملهم لله تعالى .. فمن بركته :

يهتدى بهم الضال .

ويقتدى السالك .

وينشط الخامل .

ويستمر الكامل .

ويسكن الحيران .

وحتى إذا صمتوا :

ففى صمتهم وقار ..

ويذكرون الناس بالله .

﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾

إن صمتهم وهم يؤدون الأعمال الكبار .. مثل صمت القمر .. لا صمت البشر:

القمر .. الذى يسبح فى مداره ساكنا .. ساكتا

ومع ذلك فهو الذى يهيج سكينة البحار مدا وجزراً .

الـوفـاء
للأمـــــوات

الوفاء للأحياء شئ عظيم .. كما أسلفنا ..

وأعظم منه الوفاء للأموات :

لما مات النبى صلى الله عليه وسلم . بكاه الصحابة قائلين :

ليتنا متنا قبله .. حتى لا نفتن بعده ..

ولكن « معن بن عدى » كانت له وجهة نظر أخرى دونهم جميعاً ..

فقد رد عليهم قائلا :

ولكنى رغبت فى أن أعيش بعده .. حتى أصدقه حيا .. وميتا !

إنها وجهة نظر مختلفة . ولكن القلوب مؤتلفة .

ومن الوفاء للأموات .. ما روى من أنه كان بالبصرة ثلاثة إخوة من ولد عتاب بن أسيد :

كان أحدهم يحج عن حمزة .. ويقول :

استشهد قبل أن يحج .

وكان الآخر يضحى عن أبى بكر وعمر ويقول :

أخطأ السنة فى ترك الأضحية .

وكان الآخر يفطر عن عائشة أيام التشريق

ويقول :

غلطت فى صومها أيام العيد .

فمن صام عن أبيه وأمه . فأنا أفطر عن أمي عائشة .

وتأمل كيف اتسعت همة هؤلاء الأمجاد ..

حتى اعتبروا أنفسهم مسئولين .. حتى عن هؤلاء العظام الراحلين والذين حفلت سيرهم بجلائل الأعمال .

لكنها النفوس الكبيرة :

وإذا كانت النفوس كبارا

تعبت في مرادها الأجسام

همـــة العلـــماء

أبعد الناس عن الشفاء مريض لا يؤتى إلا من قبل دوائه ..

ولا يؤتى فى علته .. إلا من قبل حميته !!

وبنفس القوة نقول :

ليس هناك أشقى من عالم يؤتى من قبل علمه ..

فعلمه هو الذى أطغاه .. وكان الظن أن يكون سبيل هداه ..

وعندما يتضخم العلم .. وبنفس النسبة تتضاءل الهمة .. فقل على العلماء السلام !!

لكن العالم الحق :

كما هو فارس الحلبة فى المسجد ..

فهو فارسها على مساحة المجتمع ..

[معقود النية على طاعة الله عزوجل ، مطوى القلب على مناصحة الناس .. مشحوذ السيف على أعداء الفضيلة]

وهكذا كان العلماء .. زمان ..

وقد يسئ بهم الظن .. هؤلاء السطحيون المتلمسون للبرآء العيب ..

ولكن الله تعالى يدخر لهم يوما لاريب فيه .. يشع معدنهم الأصيل فيه ضياء ..

وتتراجع سخرية الساخرين .. وتتضاءل ضحكات الشامتين لتكون النهاية .. لمن يضحك أخيرا ..

يروى قتيبة بن مسلم قال :

أرسلنى أبى إلى ضرار بن القعقاع بن معبد بن زرارة فقال :

قل له : قد كان فى قومك دماء وجراح .. وقد أحبوا أن تحضر المسجد فيمن يحضر

قال :

يا جارية :

غدينى

فجاءت بأرغفة خشن .. فثردتهن ..

فى مرنس (تمر وزيت]

ثم برقتهن .. فأكل !

قال قتيبة :

فجعل شأنه يصغر فى عينى ونفسى

ثم مسح يده وقال :

الحمد لله ..

حنطة الأهواز .. وتمر الفرات .. وزيت الشام ..

ثم أخذ نعليه : وارتدى

ثم انطلق معى . وأتى المسجد الجامع . فصلى ركعتين .. ثم احتبى .

فما رأته حلقة إلا تفوضت إليه:

فاجتمع الطالبون والمطلوبون . فأكثروا الكلام .

فقال :

إلى ماذا صار أمرهم ؟! قالوا :

إلى كذا وكذا من إبل . قال : هى على . ثم قام]!

لقد قام الشيخ .. ولم يلق درسه التقليدى بالمسجد .. اكتفاء بهذا الدرس الذى رد الله به كيد الشيطان .. وحفظ به دماء الإنسان ..

الحاسد بين شقى الرحى

عندما قال الفلاح البسيط : الحسد منشار! كان منطقيا مع نفسه . ومع الحق وهو يصور كيف كان الحسد تخريبا .. ودمارا.. يدع الديار بلاقع .

وأخذت من الفلاح الحكيم طرف الحديث لأقول :

نعم : إن الحسد منشار:

يأكل نازلا .. ويأكل صاعدا !

فالحاسد يضع نفسه بين شقى الرحى فهو فى عذاب مضاعف .. ومستمر :

فإذا نزل به بلاء .. حزن ..

وإذا نزل بغيره خير .. حزن ..

وحتى إذا أصابه هو خير : لايدوم فرحه بهذا الخير طويلا :

أ- لأنه مشغول بملاحقة أحوال الناس من حوله . وماذا جد فى حياتهم .. فلم يترك له الحقد وقتا يتذوق فيه طعم الخير لديه !!

ب- ثم إنه يتوهم دائما أن خيره أقل من خير الغير . وإن لم يكن فى الواقع كذلك..

حـ - ثم إن فرحه ببلاء الآخرين لا يدوم .. لأن فى الحى من حوله متعمين !!

وأخيرا :

تبقى « النشارة » مبعثرة هناك عن اليمين وعن الشمال .. تبقى درسا يشير إلى رفات خشب صلب كان من الممكن أن يكون شيئا مذكورا ..

ولكنه العمر المبعثر .. يبدده الحاقدون . من حيث لا يشعرون ..

حـقـــد الـصـغـار

عير رجل سقراط بنسبه . فقال له سقراط:

إليك انتهى شرف قومك .. فأنت عارهم .. ومنى ابتد شرف قومى .. فأنا زينهم !

ومن المهازيل من يمكر فى الأتهام :

فهو لا يتهمك بالبخل .. أو بالجبن .. لأن الناس يمكن أن يتحققوا من زيف تهمتى الجبن والبخل .

ومن أجل ذلك يلطف كيده حين يتهمك بالاشارة سالكا طريق المشركين الذين ركزوا على تهمة بالسحر يرمون بها الرسول صلى الله عليه وسلم .

لأنها تهمة غير منضبطة ..

فيقولون عنك :

ساحر

أو لو دفع بين الناس

وماذا عليك أيها المتهم !

الزم الصمت

فالماء الساكن يكون دائما اعمق . . لا تعامل خصومك بمثل سلاحهم فأشر الناس من يعتقد أنه خير الناس !

وأخيرا .. قد يتظور الحقد إلى شهادة الزور.

خطورة شاهد الزور:

١- الزور نفسه : معصية

٢- ثم هو خذلان للمظلوم .

٣- وفى نفس الوقت .. إعانة للظالم عليه .

من أجل ذلك كان خطر شاهد الزور .. الذى يخرج . من شرنقة الحقد ليضرب ضربته الخاطفة

ولكن .. مهما حقق من نجاح .. فإنه ذليل .. لأنه كذاب ..

وليس للأكذوبه أرجل .. ولكن للفضية أجنحة !

قال المهلب :

عليك بالصدق .. وما السيف الباتر فى كف الشجاع .. بأعز من الصدق .

الصديق عز : وإن كان فيه ما تكره .

والكذب ذل .. وإن كان فيه ماتحب !

ومن عرف بالكذب .. اتهم فى الصدق .

وقد مات الفتى غرقا .. لما مازح من على الشاطئ ساخراً ..

فتركوه .. فمات .. فى لحظة كان محتاجا إليهم فعلا .

نفثـــة مصـدور

واجه الشيخ التهمة .. وكان هو وحده الذى يملك أدلة براءته ..

ولكن [ضيق مساحة الثقة وانتشار الريبه . وسيادة المصالح .. وتحت ضغط الهوان . وقسوة الا دانه .. قد يلوح الحق سرابا.. وقد تنمو لدى الأبرياء من الضحايا مشاعر جنون].

وصحيح أن له بين الناس مكانا.. ولكن ليس له عندهم مكانه !

[وصار يعيش خارج الزمن :

صار ما يلمسه .. لا يستوعبه .. وما يأكله .. لا يهضمه .. وأصبح جواره لغيره لا يعنى التعارف أو التآلف .. وإنما مجرد وجود شكلى ..

والمسافة بينه .. وبين أقرب الناس إليه من المستحيل عبورها ..] !

ماذا يفعل « العالم » فى خضم هذا « العالم » الظالم ؟!

إن الواقع يقول من حوله :

إذا افتقر الرجل .. ماذا يحدث ؟

أ- يتهمة .. من كان يأتمنه .

ب- ويسئ به الظن .. من كان يحسنه .

حـ- وإذا أذنب غيره .. نسب الذنب إليه .. ومن كان له .. صار عليه !!

ماذا يفعل العالم إذا اهتز المقياس فى أيدى الناس ؟

إنه قرار الاعتـــزال :

وهو ما فعله ابن أدهم وقد قيل له يوما :

لم لا تصحب الناس ؟ فقال :

إن صحبت ما هو دونى .. آذانى بجهله .

وإن صحبت من هو فوقى .. تكبر على

وإن صحبت من هو مثلى .. حسدنى

فاشتغلت بمن ليس في صحبته ملال ..

ولا في صله انقطاع

ولا فى الأنس به وحشة]

وإذا كان قرار الاعتزال صعبا .. فمما يشفع لنا أننا مضطرون إلى اتخاذه ردا على حماقات الآخرين ..

لقد نزل جحا البحر مرارا .. وكلما فعل .. سرقت ثيابه ! فشوهد يوما ينزل البحر بثيابه ..

فلما سئل فى ذلك . قال :

لأن تبتل ثيابى .. وهى معى .. خير من أن تكون « جافة » عند غيرى !!

وقل معى : كيف يطيب العيش مع رجل :

طويل اللسان .. فى اللؤم .

قصير الباع .. فى الكرم .

وثاب على الشر .. مناع للخير ؟!!

وقد يفعل الخير يوما .. لكنه كالخمر والميسر : إثمهما أكبر من نفعهما !

وهكذا يكون الإنسان فى غيبة الإيمان ..

يقول أحدهم محذراً من هذا النموذج :

مـا تمد لنا شبـرا من غـدر .. إلا مـددنا لك باعـا من خـتـر ! [والختـر . أشـد الغدر] [وجزاء سيئة سيئة مثلها]

أما فى ظل الإسلام .. فالمسلمون لا يعرفون الغدر .. وإنما دينهم الوفاء ..

ولهم رأى عام ضاغط .. يلزم المتجاوز كلمة التقوى .

روى الإمام أحمد :

« كان معاوية رضى الله عنه يسير فى أرض الروم . وكان بينه وبينهم عهد إلى أمد .

فاراد أن يدنو من ديارهم .. حتى إذا انقضى الأمد غزاهم من قريب .

فإذا بشيخ على فرس يقول :

الله أكبر ! .. وفاء .. لا غدرا .. يا معاوية !

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقده .. ولا يسدها حتى ينقضى أمد العهد .. أو ينبذهم علي سواء »

وقد تسأل : لقد هاجم أعداءه مباعثه .. والجواب :

لقد كانوا مشاكسين . مردة . وكان مجتهدا فيما ذهب إليه.

أما بعد :

فما فائدة الطريق .. إذا لم يؤد لغاية

وما قيمة الحياة .. إذا لم تجدلها معنى !

إن لحياتك معنى .. وعليك أن تجده

قال الواغط لضائع مائع .. لا رسالة له فى الحياة :

ماهى وظيفة عينك .. فقال :

الرؤية ..

ولسانك ؟ قال : الكلام ..

وحذائك ؟ قال : أن يعين قدمى على السير ..

فقال له الواعظ :

لحذائك رسالة .. ولا رسالة لك ؟!!

إن القوى حقا

من ينتصر علي غيره ..

وإن الأقوى من ينتصر على نفسه ..

مخالطة الناس

ولكن القاعدة الإسلامية تقول :

المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم .. خير من المؤمن الذى لا يخالط الناس . ولا يصبر على أذاهم .

فلابد من مخالطة الصالحين .. فلعل الله تعالى أن يرزقنا بمخالطتهم الصلاح.

وتأمل من مواقف أبى بكر رضى الله عنه وكيف كان رضى الله عنه رحمة مهداة .. وفى خلطتة كان السراج المبنر .. المعين على أمر الله .. فى ساعة العسرة :

كان إذا عزى رجلا قال له :

[ليس مع العزاء مصيبة .

ولا مع الجزع فائدة

الموت أشد ما قبله .. وأهون ما بعده .

اذكروا فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. تهن عندكم مصيبتكم .

صلى الله على محمد . وعظم أجركم]

وذلك خير من عزاء فى صحيفة ..نذرف فيها دموع التماسيح .. وننفق بها أموالا سخرت للأحياء من الورثة .. ولا فضل لها يعود على الأموات .

القدوة الحسنة

إن الفضائل تفيض .. على قدر قوتها .. وهو معنى ما قيل :

على قدر قوة الرامى .. يكون الرمى .

وكذلك كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم .

كانوا أقوياء في استمساكهم بالعروة الوثقى .. بالمثل العليا .. فانتشر بهم الإسلام فى فجاج الأرض جميعا..

ويعنى ذلك أنه لا بد من القيم .. ومن عشق هذه القيم .. حتى تتم نعمة الله كمالا ..

فإذا تراخت الأيدى علي الحبل المتين .. وإذا خف وزنها فى قلوب المهازيل .. فكيف تصل إلى الآخرين .. والرماه غفاة .. عراة من قوة اليقين ؟؟

يقول عزو جل :

{ من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أن من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا }

إنه لا قيمة لمن أزهق روحا واحدة .. حتى لو بنى العمارات وشق الأنهار ومد الجسور .

لقد من الله على الناس « بالسمع » و« البصر » و « الفؤاد » ولم يمتن عليهم بذات الأذن .. ولا بالعين .. ولا بالقلب أو العقل .. وإنما من عليهم « بالوظيفة » و إلا .. فإن الجارحة بلا عمل .. لا قيمة لها..

وكذلك الإنسان : إنه كتلة من اللحم والعظم في غياب القيم .. والحماس لها.. أما في « حضورها » فهو الإنسان وسينتصر .. وإن واجه العالم كله .

المسلم .. والحس الاجتماعى

ومن هؤلاء العظماء :

ابن عباس رضى الله عنه والذى كان فى استمساكه بالقيم مضرب بالمثل :

قال : ثلاثة لا أكافئهم مهما قدمت إليهم

١- رجل بدأنى بالسلام .

٢- ورجل وسع لي فى المجلس .

٣- ورجل اغبرت قدماه في المشى إلى إرادة التسليم على .

٤- أما الرابع :

فلا يكافئه عنى إلا الله عزو جل .

فقيل له : من هو ؟ قال

رجل نزل به أمر .. فبات ليلة يفكر بمن ينزله.. ثم رآنى أهلا لحاجته . فأنزلها بى .

وهكذا كان أمثلهم طريقة .. من جاءه ليكلفه .. ليحمل زاده إلى الآخرة .. وبلا أجرة !

وياله من مجاهد : سوف يرفل في بحبوحة الثواب ..

ويدخل الجنة .. بلا حساب !

من هو المحافظ .. الحافظ لحدود الله ؟

لابد للنجاح من أهداف .. واضحة

وأيضاً لابد له من وسائل .. على مستوى هذه الأهداف .. سموا .. وجلاء .

وقد عاشرنا من لم تكن لهم أهداف .. إلا مصالحهم .. فكانت وسائلهم من جنس هذه المصالح : متقلبة .. مؤذية !

يبدو واحد منهم مغروراً مثل الديك .. الذى يظن أن الشمس ما أشرقت إلا على صياحه الجميل !

وهو يضيف إلى هذا الخطأ .. خطيئة كبرى حين يريد احتكار القيم .. أو تأميمها لحسابه ..حتى لا تتداول فى أسواق الناس !

ولكن صاحبنا كان له هدف .. وكانت له وسائل على مستوى هدفه :

نبلا وكرما .

تنظر إليه فترى نضارة الشباب .. فرحا بالخير الذي أعده الله تعالى لإنجازه..

وفى نفس اللحظة ترى فى ملامحه بعض التجاعيد .. التى هى كما قيل :

(توقيع الزمن .. على وجوه الأبرار الأخيار .. تثبت أن الزمن مر من هنا)!!

إنه :

ثابت الخطوة يمشى ملكا ..عزيزا وقورا :

لا يتوسل ..

ولا يتسول ..

وله من همته ما يغنيه عن ذلك :

فهو لا يحلق عاليا .. عاليا ..كأنه فيلسوف

كما وأنه لا يهبط إلى الواقع .. بتفاصيل هذا الواقع وصخبه .

وإنما « يعيش» الواقع موصول القلب به .. مشغولا بالعلاج ولا يضيع وقته فى أسباب العلة .. إلا بقدر ..

إنه :

النابغة .. وليس العبقرى :

ذلك بأن العبقرى : يسبق الناس .. ثم ينفصل عنهم ..

لأنه يسبق عصره ..

أما النابغة .. فهو مثله : يسبق الناس .. ولكنه يأخذهم معه .. فى صحبته.. وتحت جناحه ..

يأخذهم على موجات دافقة من عواطفه الدافئة

(فإن تفق الأنام وأنت منهم - فإن المسك بعض دم الغزال)

ومن ثقته بنفسه :

أنه : يتحدث .. ولا يتحدى ..

وقد تتراكض الهموم .. وتتعقد المشكلات .. وقد تتوقع ثورة عارمة يطفئ بها فورة غضبة .. وإذا بك أمام : البسمة .. العارضة .. تخفى الهموم الراكضة !

وهكذا رجل المواقف :

(إن الغضب فى حاجة إليه ليحوله من بخار مكتوم .. إلى حركة تصحيح .

فى حاجة إلى من يفتح ثقبا فى خزان الوقود .. قبل أن ينفجر).

إنه يملك قيمة الحكمة .. وقيمة التضحية فى آن :

وإذا كان الواقع يقول :

أخلص الناس أشـدهم حـاجـة إليك .. وكـان كـالإسـفنجـة : تعطى بقـدر مـا امتصت..

إذا كان الواقع كذلك .. فقد حلق هو فوق هذا الواقع حتى صار أخلص الناس لك بينما أنت فى أشد الحاجة إليه .!

أما بعد : فهل وفيت الرجل حقه ؟

هل قلت كل ما أعرف عن فضائله ؟

أبداً ..

ولست فى حاجة إلى مزيد :

فيكفيك من المسك أن تشمه .. ولا حاجة بك إلى أن تلمسه ..

وإنما أن تعيش فى عبقه :

أن تحياه .. وذلك معنى الحياة !!

شجاعة الاعتراف بالحق

أن يكلفك الإعتراف بالحق .. خسارة منصب أو مال .. فذلك أمر محتمل ..

أما أن يكلفك الاعتراف بالحق « روحك » فتلك هى الفدائية حقا :

(جئ لعلى رضى الله عنه برجل . وبيده سكين .. بجوار جثة رجل مقتول . فاعترف الرجل بارتكاب جريمته .

وقال الإمام :

إذهبوا به فاقتلوه !

وإذا برجل آخر يتقدم إلى الخليفة ويقول :

إنه القاتل !!

فقال الإمام للرجل الأول :

ما الذى حملك على الاعتراف بجريمة لم ترتكبها ؟ فقال :

يا أمير المؤمنين :

وماذا أستطيع أن أصنع : وقد رأيت القتيل .. ووقفت أنظر إليه مشدوها . وبيدى سكين تقطر بدماء بقرة ذبحتها .. ولن يصدقنى أحد إذا أنكرت .

أما القاتل الحقيقى فقال : إنه اختبأ قريبا من الجثة بعد ارتكابه الحادث . ولما أدركت أن شخصا بريئا سيقتل بدلا منى . صممت على الاعتراف بجريمتى حتى لاتزر نفس وزر أخرى .

وعندئذ سأل الإمام ابنه « الحسين »

ما الحكم فى هذا ؟ قال :

يا أمير المؤمنين :

إن كان قتل نفسا .. فقد أحيا نفسا ..

وقد قال الله تعالى :

(ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً)

فأطلق الإمام سراح الرجلين ..

ثم دفع دية القتيل من بيت المال

تعـليــــق :

١- إن القاتل هنا غير محترف .. بدليل أن لم يفر بعيدا عن مسرح الجريمة .. وإنما هو فرضت عليه الجريما فرضا .

وكان ضميره قد صحا من غفلته بعدما نفذ جريمته .. فصمم على البقاء قريبا من الجثة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

٢- وهذا يؤكد أن غير المحترف قد يكون مدفوعا بعامل خارجى .. أما نفسه .. فغير راضية عن عمله ..

وأما ضميره .. فها هو ذا يكلفه أن يجود بحياته إنقاذا لمظلوم لا ناقة له فى القضية ولا جمل.

٣- والرجل الطيب الذى اعترف .. يذكرنا بضرورة أن يكون المسلم حذرا كيسا . فطنا .. حتى لا يقع فى الشراك التى ينصبها المغرضون له ..

فقد تستغل طيبته للإيقاع بها ..

والمفروض فى المسلم أن يكون حذراً ..

٤- وتأمل كيف يشرك الخليفة ولده .. ليدلى بدلوه فى قضية خطيرة .. إيمانا منه بضرورة أن يتحمل النشء دورهم .. تدريبا لهم .. وامتحانا يصقل معدنهم .. حتى إذا مات الوالد كان الولد من بعده امتداد حياته ..

٥- وكان الحسين عند حسن الظن به : ذكيا .. لماحا .. عندما فهم الآية فهما أنقذ به الموقف .. بقدر ما أسعد الوالد الذى يرى ولده وقد رزقه الله تعالى نعمة التوفيق .

ذاك الشبل .. من هذا الأسد

ولقد ورث الحسين عن أبيه ذكاءه وفطنته ..

ففى المبارزة التى تمت بين « على » رضى الله عنه و« عمرو بن ود » .. لم يكن على رضى الله عنه شجاعا فقط .. ولكنه ضم إلى الشجاعة ذكاءه اللماح ..

وذلك عندما استعمل هذا الذكاء سلاحا له وهو يواجه الطاغية .. وذلك لما قال له قبل أن يضربه بالسيف : أنا لا أبارز اثنين ؟!!

ولما التفت « عمرو » ليرى هذا الثانى الذى لا وجود له .. عاجلة على بسيفه.. فصرعه !!

لقد كان الحسين شبلا .. من هذا الأسد

وأين من هذه الحكمة .. ما يحدث اليوم من صيرورة الشباب عالة على آبائهم..

فألغوا عقولهم المفكرة . لتنوب عنهم الآلات الحاسبة فى تدبير شئونهم !

إنهم يحملون سيف رسول الله .. لكنهم لا يتبعون سنته !

شجــاعة أدبيــــة

وتبقى « شجاعة الاعتراف بالحق» قيمة أصيلة .. ينقذ الله تعالى بها المظلوم.. ليخرج من خلف القضبان حرا طليقا .. موقنا بإنتمائه إلى مجتمع لم يتركه ليدفع وحده ثمن « فاتورة » حساب لم يكن طرفا فيه ..

مر « خالد بن عبدالله القسرى» فى بعض طرق دمشق . وهو غلام .

فأوطأ فرسه صبيا .. فوقف عليه ..

فلما رآه لا يتحرك .. أمر غلامه فحمله .

ثم انتهى به إلى أول مجلس مر به فقال :

إن حدث بهذا الغلام حدث الموت ..

فأنا صاحبه .. أوطأته فرسى .. ولم أعلم .

وهكذا كان « الغلمان» زمان ..

لقد نشأوا على ما كان عودهم آباؤهم ..

ومما عودوهم عليه :

الولاء للحق .. والرجوع إليه مهما كان الثمن

وما أكثر المظلومين خلف القضبان .. والمحتاجين إلى إنسان .. إنسان واحد .. تسعفه شجاعته ليقول كلمة .. يخرج الله بها رجلا من الظلمات إلى النور .

من أخلاق الصحابة

كانوا يقلون من الزيارة .. حتى لا يملوا .

ولا يقلون حتى لا ينسوا ..

وكانوا لا يكثرون طلب حوائج الناس .. حتى لا يبخل بها .

فانظر كيف يعين المسلم أخاه حتى لا يخطئ وذلك بالاقلال من حاجته إليه .. لأن الاكثار مدعاة إلى ملل المسئول .. وهو موقف ضعيف لا نرضاه له .. كما لا نرضاه لأنفسنا

هذا هو تاريخنا :

إن تاريخنا هو الإسلام مطبقا .. ولذلك فأعداؤنا يحاولون تشويهه .. مع أنه وعاء الحياة .. الحياة المؤسسة على تقوى من الله ورضوان ..

أما غيرنا :

فإنه يحاول أن يجعل من الهباء .. بناء ..ومن الغبار صروحا .

المؤمن : هو الأقوى

الإسلام دين السلام :

يدعو إليه .. بل يحض عليه ..

ولكن إذا فرضت المعركة على المسلم .. كان بطلا .. ولو كان فى الساحة وحده..

فإذا جد الجد كان فارس الحلبة ..

وهذا بعض ما فهمه المفسرون من قوله تعالى فى سورة محمد :

﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق﴾

إن التعبيربالمصدر « ضرب» يدل على الضرب من جانب واحد .. وهم المؤمنون .. ولم يقل عزوجل « فضاربوهم» فليس للعدو كيان أمامنا .

شرف الجندى المسلم

انطلق « أبو دجانة » كالرصاصة .. بين صفوف المشركين فى غزوة أحد .

انطلق كالأسد الهصور .. يخمش كل ما من يقابله .. فما نجا من سيفه أحد.

وخلال ذلك .. رأي فارسا ملثما .. لكنه سمع منه صوت امرأة ..

وعندئذ نزه سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتل به امرأة !

وكان الظن أن تدفعه نشوة الانتصار والمعركة دائرة إلى أن يحطم كل من يعترضه ..

لكن شرفه العسكرى الإيمانى .. رفض ذلك .

ثم انطلق إلى فارس مشرك .. فجند له ..

هذا الفارس الذى قال له :

من يدلنى على محمد .. فقال له أبو دجانه :

إنما أدلك على نفسى .. ثم قتله !

ويعيد التاريخ نفسه .. اليوم :
فى قصة إسلام « جارودى»

قيل :

أردت عمرا .. وأراد الله خارجة ..

وربك خلاف الظنون :

أسر « جارودى » فى الحرب العالمية الثانية ..

وسلموه لجندى جزائرى فى الجيش الفرنسى ..

قال لجارودى بعد أن انتبذ به مكانا قصيا :

أنا لن أقتلك ..

اذهب إلى مكان بعيد .. واختف !

فأنا رجل مسلم .. والإسلام ينهانا أن نقتل العزل ..

ومنذ ذلك الحين .. بدأ الملاح التائه يغير وجهته

وإذن : فكل ما كتبه جارودى .. وكل ما حطم من أصنام الشيوعية .. يعود إلى هذا الجندى الجزائرى .. المسلم .

وانها رسالة موجهة إلى من حول الحياة فى الجزائر إلى نهر من الدماء !!

آفـــة طـــول النظـــر

كان المرحوم « نصر عبدالغفور» يقول لى :

لن تستطيع قضاء مصلحة لك على يدى !!

فلما تساءلت عن السبب قال :

لأن صاحب المصلحة من العمال أو الفلاحين .. ينتظرنى على عتبة بيتى من طلوع الفجر ..

ثم يلازمنى كالظل .. إلى الحد الذى قد تلجئه الحاجة إلى التعلق بالسيارة وهى منطلقة . وإن عرض حياته للخطر ..

وأنت - بحكم مركزك - لن تفعل شيئا من ذلك .. فأنى لك قضاء مصلحتك على يدى ؟!!

وقلت له :

إشغل نفسك بالعمل ذى الصبغة الاجتماعية .. يكون أرحب فائدة ..

بدل أن تستهلك بالخدمات الفردية ..

لأنك « توظف» فردا فى شارع .. فتستجلب غضب مائة لم يوظفوا !

ولقد كان من المقرر أن تكون « كلية الدعوة» بالمنوفية .. فى مدينة منوف «دائرتك الإنتخابية » لكن الحاح الأفراد .. أنساك أن تظل مع الكلية حتى تكون «منوف» مستقرا لها .. فذهبت إلى « شبين الكوم» .

وذكرته يومئذ بما قاله ..لويس الرابع عشر :

لقد قال : فى كل مرة أشغل فيها منصبا خاليا بأحد الأتباع فإنى - وفى نفس اللحظة - أصنع مائة ساخط على هذا الاختيار .. من بين الطامعين فيه .

ومعهم واحد آخر غير شكور هو :

ما اخترته لهذا المنصب نفسه !!

وهو نفسه المعنى الذى أجدده اليوم .. مع أصدقاء الدنيا :

الذين يعرفونك : صحيحا .. متحدثا لبقا ..

فإذا وقعت فى « الحفرة » لم تجد منهم أحداً يسمى عليك !

والمحنة من حولهم تعلن عن نفسها ..

ورائحة الظلم تزكم الأنوف ..

ومع هذه الآيات التى تسـمع الموتى .. لكنهم لا يسـمعـون .. ولا يرون إلا البعيد .. المفيد ؟!

إنهم سكارى المناصب ..

ومن وراء المناصب ..المعاطب

إلا من عصمه الله تعالى .. بتوقع غِيَر الزمان

تجوع الحرة .. ولا تأكل بثدييها

وقد أشير على بأن سيفك مادام قصيرا .. فلتتقدم خطوة إلى الأمام .. لتسمعهم شكواك .. وقلت :

تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها .. وأنشدت : مع الشاعر العربى :

قالوا الخضوع : سياسة

فليبد منك لهم خضـــوع

وألذ من طعم الخضـــوع

على فمى : السم النقـيع .

ماسرت قط إلى القــــتا

ل.. وكان من أملى الرجوع

شيـم الألى أنــا منهمـــو :

والأصـــل تتبعــه الفــروع

وإن الأمر على ما قيل :

(كل ضربة .. لا تقتلنى .. فهى تحيينى)

ولا بأس .. ولا يأس .. مع تقلبات الأيام : وإن ظل الواهمون يسبحون فى بحور الأحلام .. فالنهاية ليست لصالحهم :

وليت شعرى :

قد كان دهرك إن تأمره ممتثلا

فردك الدهر منهـيا ومـــأمورا

من بات بعدك فى ملك يسر به

فـإنما بات بالأحــلام مســروراً .

ويبقى العالم .. سيد الناس : أو هكذا يجب أن يكون :

لقد تنافس الأمين والمأمون .. فى أيهما يقدم الحذاء لمعلمهما« الكسائى » بعد الفراغ من الدرس .

واتفقا على أن يحمل كل واحد منهما : فردة !

ولما دخل « الكسائى » على الرشيد بعد ذلك سأله الرشيد :

من أعز الناس ؟

فقال الكسائى : أعز الناس : الخليفة !

فقال له الرشيد : لا .. ولكن أعز الناس : من يتسابق وليا العهد لحمل حذائه!!

إن ضوء العالِم غامر .. فما القمر ؟!

وريحة عاطر .. فما الزهر ؟!!

وقد اعترف الرشيد هنا بقيمة العالم .. الذى لم يكن فقط « مدرسا خصوصيا » بل كان للذرية رائدا ومرشداً ..

وبقيت هيبة العالم .. في عيون القمة : قيمة جليلة نبيلة ..

تلك الهيبة التى عبرت الحدود فضاء لت من أعدائنا :

لقد كانت المرأة الفرنسية إذا بكى طفلها وأرادت أن تسكته .. كانت تقول له:

عربى .. مسلم .. عند الباب ..

ثم خلف من بعدهم خلف أسقطوا العلماء من حسابهم ..

مع أن دينهم يوصيهم بهم .

(إن من إجلال الله تعالى :

إكرام ذى الشيبة المسلم . وحامل القرآن)

(القـرب .. حجـاب)

لكن لماذا يهرول بعض الناس لخدمة البعيد.. بينما يصمون آذانهم عن أنات القريب ؟!

ما سر هذه « اللامبالاة » حين يفقدون الإحساس بالمسئولية أحيانا .. فلا تأييد .. ولا معارضة ؟! وإنما الصمت المريب ؟

ليس فى عقولهم غباء .. وليس فى أعينهم عماء ..

ولكنها « شدة القرب »

وهى آفة تحول بين البشر وبين الحكم الصائب على إنسان .. أو الحكم له ..

لأن العادة والتكرار مانعان من ذلك .. حاجبان الرؤية الكاشفة ..

من أجل ذلك .. ترى هؤلاء المتسرعين لايعرفون قيمتك إلى بعد رحيلك ..

وقد قيل :

(إننا معشر البشر : مخلوقات ممتدة النظر من الناحية الروحية .

ولذلك فإن الإنسان يرى الأشياء أكثر وضوحا ..

ولكن على بعد ..

ذلك بأن التفاصيل تربكنا .

وعلينا أن نبتعد كلما نريد أن نصدر فيه حكما :

فإن خير وصف للشتاء .. إنما يقدمه الإنسان فى (الصيف) !!

وما أكثر الأوفياء الذين نعايشهم .. ونحتك بهم .. ونحن على يقين من إخلاصهم ..

ولكننا لا نقدرهم قدرهم إلا بعد موتهم .. أو سجنهم !

ليدور موقفنا على واحد من محورين :

إما الحب .. فنبالغ فى المدح .

وإما الكراهية .. فنبالغ فى الذم !

قــدر الدعــاة

وإذا كان طلاب الدنيا يقفزون مراحل الصعود يريدون إختزالها حتى يصلوا قبل الأوان . فإن الداعية يمضى الهوينى نحو هدفه :

خطوة .. خطوة .. :

لا يقفز وإنما يمارس كل ألوان المعاناه .. وفيها البلاء المبين ..

فالبلاء مرحلة مهمة من مراحل الطريق .. تعده للمستقبل بما تمده من طاقة ليكون أهلا لمرتبة تالية ..

إنه رجل واقعى :

لا يبحر فوق البساط المسحور .. ولا يمتطى الحصان الطائر .. ولكنه يمشى على رجلين .. حتى يصل إلي الشاطئ فى نفس الميعاد ..

وقد يسمع من العاذلين ما يحمله مسئولية البلاء الذى وقع فيه ..

ولكنها الكلمة المفتراه : تحرق فقط شفتى قائلها !!

إن جنين النصر فى كيان الداعية لا يتخلق إلا على نار هادئة ..

ولن يكون فى يوم ما « حصان طروادة » الذي يجعل الأحلام حقائق ..

وإنما هى المقاومة لضغوط الأيام .. والتى تدفعنا إلى مقامات أرفع ..

وكأنما تسرقنا من أنفسنا .. لنعود من بعد على غاية ماتكون العافية ..

وقد تنظر حولك يوما .. فتجد المحنة قد فرقت بينك وبين أحبابك .

ولا بأس :

بلى إن هذا الدهر فرق بيننا

وأى جميع لا يفرقه الدهر ؟!

وزيـــر
وإن ترك المكتب الأنيق !

وقد يبدو الداعية شاحب اللون .. ضامر الوجه ..

إنه عندئذ صادق مع نفسه حين يعلن وجهه عن ألم باطنه ولكنه لا يتخلى أبدا عن تلك الابتسامة الساخرة .. والتى يستعلى بها على الشامتين والشانئين .

وفى الطريق الموحش .. وأنت تحس بالهوان من ريب الزمان يلقاك من يسوقه الله إليك .. ليأسو جراحك .. ويحميك من قطاع الطريق .. فكان هذا الرجل البار الذى قيل فيه :

(لا غيبك الله عن مواطن العز والبر .

وأشهدك إياها .. بعلو يدك . وهبوب ريحك

واستفاد جميع أهلها بزمام طاعتك)

فإذا تأملت حجم البركة التى حلت بساحتك بقدومه قلت أيضا مع القائل :

الثم أنامله .. فلسن أناملا

لكنـــهن مفـــاتح الأرزاق

ثم قل للذين تجاوزوك ..

فصبحك السعادة كل يوم

بإجلال .. وقدر غم الحسود

ولا زالت لك الأيام بيضا

وأيام الذى عاداك سود !

وأخيراً :

إن كل «وزير» وإن طال به الزمن .. سوف يكون يوما « الوزير السابق» إلا الإنسان .. الذى حافظ على كرامة الإنسان .. فإنه يبقى فى القلب أبداً !

ضعفاء ..
ولكن أقوياء

دفع الصياد بكلبه يلهث وراء الغزال الشارد .. فقال الغزال للكلب :

لن تلحقنى ! .. لأنك تجرى لغيرك ..

أما أنا .. فأجرى لنفسى !

وهكذا .. وفى مجالى الطبيعة ترى الزهور .. بلا جذور .. وقد يغريك مشهدها .. لكن هبة النسيم تجتثها .. لأنها بلا أصول ..

وهكذا الإنسان أيضا :

فالمؤمن الذى عمر الإيمان قلبه .. ثابت مطمئن .. كأنه الجبل الراسى .

لأن له ذاتية .. له شخصية ضاربة الجذور :

إنه يخشع .. لكنه قوى ..

متجرد .. لكنه عامل

قد يستضعف .. لكنه لا يضعف .. لا يستسلم أبدا ..

قد يحلم بمكانة فى الأخرة .. ولكن له مكان فى هذه الدنيا

ولكن الكافر .. قد خسر نفسه .. فهو خال من عناصر الخير ..

﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ الأنعام : ١٢.

لا يؤمنون .. ومن ثم لا يأمَنون .. فهم أبدا ممزقون ..

منبـــع الـقــوة

ومصدر القوة فى شخصية المسلم هو ثقته بربه التى بلغت حد اليقين ..

إنه يعرف أنه كيان ضعيف .. ومن ثم فهو مستسلم لقضاء ربه .. راض به ..

بل إنه يعتقد بأن ما اختاره الله تعالى له هو الخير .. حتى فى اللحظة التى يجود فيها بحياته .. انطلاقا من قوله تعالى :

﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ البقرة : ٢١٦

وفى ضوء هذه الآية الكريمة يستجمع المؤمن شجاعته وهو فى معمعان الخطر.. ليكون لحظة الموت فى قمة شجاعته .. وليس هو بالذى يبكى على اللبن المسكوب !

وقد يكون فى محنته رمزا لعزة المؤمن التى تواجه الجلادين بما يزلزل كيانهم .. بينما يحيط بهم الجند مدججين بالسلاح .

ومن كبرياء الإيمان ما يحكيه التاريخ عن « ابن المقفع » الذى قال لمن يقطع أوصاله حيا :

إذا مت أنا .. مات بموتى خلق كثير .. أما أنت فسوف تموت . فلا يدرى بموتك الصغير ولا الكبير !

وفى التنويه بهذا التسليم كمصدر قوة المسلم يقولون :

(إن قضية التسليم هذه قضية جوهرية فى حياة المسلم : فهى التى تتوقف عليها صحته النفسية .

وأعنى بالتسليم هنا : التسليم بمالا يمكن تغييره .

وليس التسليم بما يمكن تغييره :

فالمؤمن مطالب بالكفاح حتى آخر رمق فى حياته .

ولكنه إذا سقط فى مرحلة من مراحل الكفاح وخرج الأمر من إمكاناته وقدراته .. فهنا يكون التسليم بمنفعة الفشل !

إن النعمة التى تصيب الإنسان .. لا تعنى بالضرورة النعيم ..والشر الذى يصيب الإنسان .. لا يعنى بالضرورة الجحيم .

فالله تعالى يختبر الإنسان بالخير كما يختبره بالشر :

﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ الأنبياء : ٣٥.

والمفروض أن المؤمن يمضى .. نوره بين يديه .. فهو سائر على هدى .. يرى الأشياء كما هى ..

بل إن أشعة بصيرته لتمتد ليرى بنور الله تعالى مالا يراه الماديون .. الملتصقون بطين الأرض ..

إن المادى : تحكمه المادة .. تسيطر عليه العمليات الحسابية ..

فلا يؤمن إلا بالأرقام وبالأحجام ..

ومن ثم ينفض سوق الحياة .. فيخرج مفلسا .. بل يخرج مثقلا بالديون ..

إنه أعجوبة الدنيا :

عرف الله .. فعصاه

وعرف الشيطان .. فأطاعه

ثم عرف الدنيا .. فركن إليها ..

وقارن بين رجل هذا شأنه يمضى إلى حتفه لايرى إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ..

قارن بينه وبين رجل كأحمد بن حنبل رحمه الله .. والذى أبصر فى لجة الخطر مالا يرى الناس من حوله :

لقد كان ساعة جلده ثابتا .. شامخا ..

ولكن تلاميذه بكوا بكاء مرا .. ولم تكن المعادلة هنا عصية على التفسير :

لقد كان التلاميذ يرون يد الجلاد .. فبكوا .. أما الإمام فكان يرى يد الله .. فابتسم !!

وجــاء الـفــرج

ترامت إليـه الأنبـاء عن الحـادث المروع .. والذى انجلى عن أشـلاء وضـحـايا وجاشت نفس الشيخ بالأسى .. فإذا عـيناه تندى بالدمـوع ويشـتـعل قلبـه بالحزن .. وإذا لسانه يتحرك بالدعاء راجيا رحمة الله بالراحلين .. والمحزونين .

وفـجـأة يجـيـئـه من قـريب .. مـن يخـبـره بـأن ولده ربما كـان واحـدا من هؤلاء الراحلين .. وكل الشواهد تؤكد ذلك .

وعندئذ .. تنتفض غريزة الأبوة من مرقدها ..

وأحياناً .. يتراكم الصدأ على غرائزنا وعواطفنا .. من طول ما تفعل الرتابة والألفة بنا ..

لكنها تهب فجأة .. نافضة ذلك الصدأ .. لتؤكد أنها قد تختفى أحيانا.. لكنها لا تموت !

وهذا مـا حدث بالفـعل .. فـقد انتـفضت غـريزة الأبوة لحظة الخطر لتـعلن عن نفسها بهذا الهتاف :

أبنى .. ياأنا .. بعدما أموت ؟

أصحـيح أن النسـر المحلق فى السـمـوات العلا .. صـار اليـوم جثـة هامـدة .. تفترش الحصباء .. فى هجير الصحراء ..

ثم نامت نومة الأبد .. بلا تحية وبلا وداع ؟

وإذا كان هناك من لا يهمهم الخبر .. فتجاوزوه غافلين ..

فإن غريزة الأبوة لها معك شأن آخر :

لقد يراك الناس .. فلا يبكون .. لأنهم لم يروك بنفس العين التى أراك بها..

والتى تبكيك اليوم وحدها ..

إذا كان دمع العين يجرى صبابة

على غير ليلى .. فهو دمع مضيع !

ويا للحياة تستحيل أطلالا .. وذكريات :

ولقد وقفت على ديارهمو

وطلو لها بيد البلى نهب

وتلفتت عينى .. فمذ خقيت - عنى الطلول .. تلفت القلب

وإذا كان « ابن الرومى » عصى الدمع فى الشدائد حين يرد على محزون أراد أن يجعل الحياة سرادق عزاء كبير.. قائلا :

ستألف فقدان الذى قد فقدته

كإلقك وجدان الذى أنت واجد

ولكن .. متمم بن نويرة من فرط أساه على أخيه مالك يقول :

وقال أتبكى كل قبر رأيته

لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له : إن الشجى يبعث الشجى

فدعنى .. فهذا كله قبر مالك

إنه يجعل من القبر قبوراً .. ويريد أن تدور الدنيا فى فلكه وتتحمل معه همومه ..

وهكذا وعندما يتوارى الأحبة عن دنيانا .. لا يترك الحزن فى القلوب موضعا للسلوى .. لا سيما إذا كان لك أعداء .. يسعدهم ما حل بساحتك ..

هؤلاء الذين نقصوا بموت عزيزك بغيضا .. بينما نقصت أنت حبيبا !!
وقد تتمنى عندئذ أن كنت مغيبا فى بطن حوت .. فى صمت القبور ..
وفى صحبة هم مزمن .. وشيخوخة مبكرة !
ولكن .. الصبر الجميل يوافيك بما يرضيك ..
فمن رضى بحسن اختيار الله له . لم يعدل بما اختاره له الله شيئا .
وسلام على من رحل من دنيا الغرور :

ومـوت الفتى خير له من حـــيـاته
بدار هـــوان بين واشـــن وحـــاسد
سلام على نجد .. ومن حل فى نجـد
وإن كان تسليمى على البعد لا يجدى

نصف الحق .. يساوى كل الباطل !!

فى سجوة الليل .. سمع عالم النحو « الكسائى».. سمع طرقا بالباب ، فلما فتح الباب فوجئ بصديقه القديم .. يطلب منه قرضا حسناً !!

وعلى الفور عاد الكسائى إلى غرفته فحمل كيسابه كل ما ملكت يده، وسلمها إلى صديقه الذى عاد إلى بيته مجبور الخاطر شاكرا ذلك الوفاء .. فى زمان ضاع فيه الأوفياء .. لكن الذى عاد إلى غرفته باكيا هو « الكسائى» نفسه ! فلما تساءلت زوجته عن سر بكائه .. وقد أعطاه قوت الأولاد ، ومستقبلهم قال لها :

أبكى .. لأننى أحوجته إلى أن يقف هذا الموقف المحرج . وكان على أن أسأل عنه لا عطيه قبل أن يذل نفسه بهذا السؤال !

والدرس المستفاد هنا : أن هناك - فى عملية الإحسان - شيئا فوق المال هو : الشعور الإنسانى .. والكرامة النفسية !

إن كل حركة .. كل عمل : له أسس يقوم عليها ، وعواطف يقوم بها ..

وقد يصدر عن قاعدته الإيمانية ، لكن كرامة الفقير أو المحتاج غير مأخوذة فى الاعتبار .. ومن ثم يكون العمل هنا خيرا ، ولكن مع إيقاف التنفيذ .. الأغنياء يمشون على الأرض جميعا ، ولكن بعضهم أفضل ، وهم هؤلاء الذين يتطلعون إلى نجوم السماء !

وقد نرى محسنا يعطى الغريب جزافا وبلا حساب ، وقد يكون تاجرا فيعطى قريب منافسه فى التجارة إحراجا له ، وقد يكون من يعطيه قادرا على الكسب ، أما قريبه .. أما قريبته .. فقد تكون أما لصغار يتضورون جوعا .. فلا يعطيها .

ذلك بأن الغرباء لهم السنة ولهم عيون ، وسوف يرضون الغرور بالمديح والإطراء . أما الأقرباء .. أما الجيران المحتاجون .. فإنهم تلك الهرة التى يستهينون بها مع أمانتها ووفائها لسبب بسيط هو : أنها لا تفترسهم .. بل وقد تدعو لهم !!

وقد يكون المحتاج هذا عالما يطلب منك معونة لمشروع خيرى .. فانظر ماذا ترى :

المشروع قاب قوسين من التمام ليستقبل الوافدين الظامئين .. لكن المال يسيل نهرا فى موطن آخر .. وهذا الموطن الآخر .. محتاج فعلا ..

لكن كيف ننفق الآلاف على «قباب» مدرسة .. ولن تكون هذه القباب «خوذة» تقى من حر الشمس .. ولا قمرها المدبب .. حربة فى صدور أعدائنا ؟!

ثم نترك مشروعا وشيك التمام .. بحفنة ضئيلة لا تساوى هذا التزويق وهذا التلفيق !!

كيف يبسط العالم كفيه طالبا غرفة ماء ، فترتد اليد مقهورة .. بينما الذى جاملك « ببرواز » فى صفحة الوفيات تفرغ له كل ما فى جيبك ثم يخرج سعيدا ويشحب العالم كاسف البال ؟

إن الإنفاق فى أى مشروع حق .. لكن .. عندما تقف الارادة مشلولة إزاء مشروع من نفس النوع .. فذلكم هو : نصف الحق .. والذى يساوى كل الباطل !!

لقد كان الكسائى كريما بغض النظر عن حجم المال الذى قدمه لصديقه القديم.. لكنه كان رقيق القلب مع ما قدمه . لكنه على أي حال كان معونة مادية وأكبر منها: تلك المعونة الإنسانية بالحفاظ على كرامة الرجال .. حتى لا نذلها بالسؤال !

لقد كان هو ذلك الكريم الذى عناه الشاعر بقوله ..

كريم متى أمدحه .. أمدحه والورى
معى .. وإذا ما لمته .. لمته وحدى

إن الذى يعطى اليتيم المعين .. والذى يحرص على مساعدة مشروع معين .. ثم لا يأبه ليتيم من نفس النوع ، ولا لمشروع على نفس المستوى ، هو ذلك الرجل

الذى يسجن نفسه فى « الجغرافيا » فى حدود مكانه .. والذين يعيشون فى حدود المكان .. يخرجون من التاريخ ..

الذين يختنقون فى كهوفهم .. يخرجون من الزمان ..

إن المال هو تلك السحابة التى تقول للأرض :

أنا مطرك .. أنا زهرك .. إذا كنت خصبة صالحة الزراعة .. أما إذا كنت رملا.. فأنا لا شئ !

وبدون الحفاظ على كرامة الفاقدين .. لن يكون هناك وجود للواجدين الذين عناهم الشاعر بقوله :

فقلت أطعمْنى .. عمير .. تمرا

فكان تمرى قهرا وزجراً !

ورحم الله الكسائى .. لقد كانت فى قلبه مروءة : لو وجدت اليوم : ما فكر ظالم فى ظلم ، ولا قوى فى قهر ، ولا غنى فى كبر ، ولنا مت عيون المسلمين .. وازدهرت حضارتهم .

أما بعد :

فقد كرم الله الكسائى لما كبرت سنه وكان للرشيد معه موقف يؤكد أن كرامة الإنسان أول مطالب الإيمان :

لقد كان الكسائى مؤدب ولد الرشيد ..

ولما كبرت سنه قال له الرشيد : كبرت سنك ..

ولن نقطع راتبك ..

وأراد بذلك اعفاء من مهمة التربية خوفا على ولده من مرض ألم به .. ولم يعالنه بمرضه ..

لقد حصد الرجل من جنس ما زرع ..

ويبقى أن يتعلم المحسنون من الأغنياء هذا الدرس .

إنك بالمال شمس ومن يقصدك قمر ..

وحتى يعود كما كان قمرا .. فامنحه أشعة من سناك :

(فامساك بمعروف .. أو تسريح بإحسان)

أما إذا لم يكن معروف ..ولا إحسان ..فقد ضاع الإيمان .. وإذا ضاع الإيمان.. فلا أمان !!

وإذا كان الإنسان مدنيا بطبعه .. فيعنى هذا أنه لا يعيش وحده ..

وإنما هو موصول بالآخرين عن طريق شبكة من العلاقات الاجتماعية .. تظل مشدودة صالحة للعمل .. مادمنا نغذيها بالعطاء المتجدد .. على ما يقول ابن المقفع:

(ابذل لصديقك دمك ومالك .

ولمعارفك رفدك وحضورك .

وللعامة بشرك ومحياك .

ولعدوك عدلك ..

وضن بدينك وعرضك عن كل أحد)

وهذا هو دور المسلم دائما :

أن يظل عينا ثرة بالعطاء .. وعلى كل مستوى .. إلا دينه وعرضه .. فليسا محل مساومة .. وتحت أى ظرف من الظروف :

يبقى الدين غالبا فلا يرخصه .. والعرض مصونا .. فلا يدنسه .

الامتحان الصعب

لكن الغريزة المتشبثة بالحياة .. قد تصطدم بالقيم الإنسانية .. فيستنوق الجمل .. ويفرط فى دينه .. وفى سمعته .

ومن مواطن هذا الزلل .. ذلك الموقف الذى يتسابق فيه المتسابقون إلى المنصب القيادى والذى يسعى له سعيه رجال .. ومن وراء كل رجل عشيرته الأقربون.. يمهدون له السبيل إلى ما يريد ويريدون .

من مواقف المؤيدين

فى سبيل رسم صورة جذابة للمرشح . يسرح الخيال .. مشرقا ومغربا .. ويكون المديح المغرق .. بل المسف سبيل قوم إلى نيل رضا المرشح للمنصب .. فلعله إن فاز أن يعوضه خيرا ..

ولقد كان هناك مداحون أذكياء .. درسوا طبيعة النفس .. فعلموا من قوانينها :

أن أجمل صوت فى الدنيا صوت إنسان يمدحك ..

ومن ثم أغرقوا فى المديح .. فسار بهم المديح إلى الكفر الصريح :

قال قائلهم أولا :

فإن تفق الأنام وأنت منهم

فإن المسك بعض دم الغزال !

فلما استمرأ الممدوح ذلك .. ركب المادح رأسه فقال :

وأخفت أهل الشرك حتى أنه

لتخافك النطف التى لم تخلق !!

وإذ ينتشى الممدوح بهذا النفاق .. فإنه يغرى المادح بمواصلة التخبط حتى يقع فى بؤرة الكفر .. وذلك قول الشاعر

ما شئت .. لا ماشاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار !!

لقد حقق المادح .. والممدوح غرض إبليس :

الأول بالنفاق .. والثانى بالسكوت .. بل بالرضا ..

ذلك بأن الإغراق فى المدح يعنى :

أن المادح ينسى الممدوح عيوبه .. ثم يستكثر عمله .. وفى النهاية يركبه الغرور ..

ومتى صار الممدوح كذلك .. فأنى له أن يفلت من قبضة إبليس الذى يتربص بالإنسان : فإذا غضب .. كان عند أنفه .. وإذا فرح .. كان فى قلبه ؟!

ومن تمكن الشيطان من قلبه فقد قامت قيامته !

لقد كان الشاعر هنا ذلك الصديق الجاهل .. الذى أراد أن يكحلها .. فأصابها بالعمى .. وأراد تزيين ممدوحه .. فلطخ وجهه .. كما يلطخ الجدار ؟!

وهذا ما أدركه البصراء الذين نصحوا فقالوا :

تجنب اثنين من المادحين :

جاهل .. يثنى عليك

وعالم .. لا يعرفك

وأحيانا .. تكون بذرة الخير كامنة هناك فى أعماق الرجل ..

لكننا بدل أن نستثمرها بالحكمة .. نحاول بالنفاق أن نغطيها حتى لا يشع نورها المخبوء تحت ركام من المديح الكاذب .. والتزلف المرذول .

ذلك بأننا لم نحسن الإجابة عن هذا السؤال :

متى يكون الرجل صالحا ؟

ولن يكون صالحا بالتزلف .. والمبالغة .. وإنما يكون الرجل صالحا :

إذا كانت النصيحة فى نيته .. والخوف فى قلبه . والصدق فى لسانه . والعمل الصالح فى جوارحه .. ولن يكون كذلك إلا بالناصح الأمين .

الضعف الشريف

يهــزم القــوة الســافلــة !

لم يكن فى يد الصبى الفلسطينى إلا حجر صغير .. ولكنه بعقله الكبير موقن بأن أقــوى وســائل الدفــاع هى : الهــجــوم .. من أجل ذلك .. هجم على الجندى الاسرائيلى المدجج بالسلاح .. والذى ولاه دبره فزعا !

لقد كان الحجر فى يده صغيرا .. ولكنه بإيمانه كان كبيرا ..

ثم فند بإقدامه نظرية نابليون والتى تقول :

إن نسبة القوة المادية إلى الروح المعنوية هى :

واحد .. إلى ثلاثة ..

فلقد أثبت الصبى أنه لا نسبة إطلاقا بين الروح المعنوية المشتقة من وهج الإيمان .. والتى كانت كل شئ .. وبين القوة المعنوية المشتقة من « القومية الفرنسية » فكانت لا شئ !

ومن ناحية أخرى فقد كان الصبى تعبيرا عن تاريخ أمته الحافل بنماذج من البطولة التى يتحدي فيها الحق الأعزل .. غطرسة الباطل .. فإذا هو دامغه !

وتأملوا تلك اللحظات الأخيرة لسعيد بن جبير رضى الله عنه .. وهو بين يدى جلاده : الحجاج :

يقولون :

إن سعيدا لما قتله الحجاج .. سال منه دم غزير .. بينما غيره سال منهم دم يسير ..

ولما سئل الأطباء فى ذلك قالوا :

لقد ذهبت أنفس من قتل قبله حسرات أو زفرات ..

فلم تكن لهم حينئذ نفوس !!

أما سعيد رضى الله عنه .. فقد قتل ونفسه معه ! :

لقد تحمل تبعات الموقف بكل أثقاله .. ولم يسلم قلبه إلى الأسى ..

وفي هذا الموقف الذى ظن به الفارغون الظنون .. كان يلقن الحجاج درسا فى شجاعة المؤمن .. حتى وهو يودع الحياة .

ولعله بشجاعته .. أخاف « الحجاج » وهو مدل بقوته ..

لقد أكل الخوف « الحجاج » بعد استشهاد سعيد رضى الله عنه .. حتى قالوا:

إن الحجاج مات بعد سعيد بشهر واحد ..

ولعله مات .. ولم تسل منه قطرة دم واحدة ..

لقد مات .. وقبل أن يموت سقط جثة هامدة .. بلا دماء .. ولا إباء .

ونذكر هنا موقفا للبطل المسلم « قتيبة بن مسلم » :

لقد خاض مع الأتراك معارك شرسة ..

وفى لحظة من لحظات النضال . هاله أمرهم . فسأل عن « محمد بن واسع » فقيل له :

هو هناك فى الميمنة :

متكئ على رمحه .

يبصبص - يشير- بأصبعيه إلى السماء .

فقال قتيبة :

تلك الإصبح أحب إلى من :

مائة ألف سيف :

شهير ..

وثاب ..

طرير .. (قاطع)

إنه جندى .. واحد .. برمح واحد ..

ومع ذلك فهو أجدى من « ترسانة» عسكرية .. نووية !!

• أجل : إنه فرد واحد .. ولكنه يعدل أمة :

(فمن شرارة واحد .. يشتعل القش اليابس .

ومن سحابة واحدة .. ينبثق البرق .. وينير فى لحظة خلايا الأودية .. وقمم الجبال .

إنه واحد .. ولكنه جندى فى كتيبة الإيمان :

(إنهم طائفة قليلة العدد .. بين طوائف كثر عددها .. ولكن :

فى الغصن المزهر .. ماليس فى غابة يابسة .

وفى حبة القمح .. ما ليس فى رابية من التبن .

إنهم النواة التى طرحها الله تعالى فى حقل ما ..

فشقت طريقها بعزم لبابها .

وتمايلت غضة أمام وجه الشمس .

وسوف تنمو شجرة عظمى .. تمتد عروقها إلى قلب الأرض ..

صاعدة فروعها إلى أعماق الفضاء)

(إن أحدهم قبل الشمس : يطلع معها النجم : فتجمعه .. فلا يراه أحد !!

وبينما الكسالى يمضون فى موكب من عجائز محدودى الظهور يسيرون متوكئين على العصا العوجاء .. إذا بموكب الإيمان يمضى من فتيان :

يتراكضون كأن فى أرجلهم أجنحة ..

ويهللون .. كأن فى حناجرهم أوتارا ..)

مــاذا بعــد الإنتخــاب ؟

استجمع عمر بن عبدالعزيز رحمه الله خصائص القيادة ..فحملته الإرادة الشعبية إلى كرسى الخلافة التى كان لها أهلا :

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

وبعد أن بويع بالخلافة .. رؤى فى مصلاه يبكى !

فأقبل عليه المسلمون يقولون :

يا ابن عبد العزيز ! مايبكيك ؟!! فقال :

إننى حملت أمانة هذه الأمامة.. فأنا أبكى لمن حملت الأمانة عنهم :

أبكى للفقير الجائع .

وابن السبيل الضائع .

والمظلوم المقهور .

وذى العيال الكثير ..

علمت أنى مسئول عنهم . وعن غيرهم . من أمة محمد صلي الله عليه وسلم. فأشفقت على نفسى . ثم بكيت لثقل الأمانة)

وهكذا يمضى الخليفة على سنة جده الفاروق رضى الله عنه .. حين كان يستشعر عظم المسئولية الملقاة على عاتقه .. حتى فى ساعات النصر فيغالب دموعه التى تغلبه .. فتخضل لحيته .. كاسرا بالبكاء هجمة الغرور .. معلنا أنه وبالذات فى لحظة النصر محتاج إلى ناصح ينتصح له .. لا إلى منافق يتملقه !

والخليفة هنا .. وقبل أن يذهب ليأخذ مكانه مستويا على عرش الخلافة .. يذهب أولا إلى المسجد .. ثم ينخرط فى البكاء .. الذى أطفأ به فى قلوب أتباعه فيض الحماس .. وفورة الإحساس : إن فى قلب الرجل لاعجا مكتوما يؤرقه ..

إنه لاعج المسئولية .. والتى يحس بها ضمير رجل يعلم أنه قد يفعل الخير .. كل الخير .. لكنه ربما تكلم يوما بما لا يعنيه .. فمسحت الكلمة كل ماضيه !

ولئن ضج الأتباع بالفرح .. انتظارا للآمال العراض ينجزها الخليفة القادم .. فقد كان ابن عبدالعزيز يعيش فى واد آخر :

فالأتباع مفتونون بالدنيا الوافدة .. لكنه رضى الله عنه يحب واهب هذه الدنيا.. الذى قرر أن يعمل له .. وإن سخط عليه الأتباع !

المــوقف بلغــة العــصر

وكأنما كان الخليفة يقول لهم - وبلغة العصر - :

لا داعى لمظاهر الحب الطاغى ..

لا داعى للافتات لو كانت ثيابا لكست كل العرايا ..

لا داعى للسرادقات .. والتهنئات على صفحات الجرائد والمجلات .. والتى لا يمكن أن تبنى مصنعا .. يستقبل العاطلين الذين يشكلون فى المجتمع قنابل موقوتة.. سوف تدمر ما عمرنا لولم تداركها حكمتنا ..

وفروا أموالكم أيها المهنئون .. وعمروا بها الدائرة !

وإلا فما قيمة ملعب ننشئه .. ليستقبل العاطلين من شبابنا ..

وهل لدى العاطل مزاج معتدل يزين له الترفيه ؟!

(ألا إنها تكاليف القيادة .. لمن كان أهلا لهذه القيادة ..

إنه عمر بن عبدالعزيز : لقدكان غرسا طاب غارسه .. فطابا

تمـــام النعمـــة

وتظل مسئولية الفرد عن رأيه موقفا تتم به النعمة كمالا :

إن الله تعالى يقول :

﴿ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ﴾ الأنفال - ١٦ .

فقد تقدمت مسئولية الجندى الفردية فى الذكر على كونه عضوا فى جماعة ..

لكنك تفتح عينك حين تفتحها على كثير ولكن لا ترى أحدا ؟!

فهناك كلام جميل كأنه السلسبيل .. وعيون تطل منها براءة الأطفال ..

ثم حديث عن هذا الصفاء الملائكى .. والخلق الزكى .. فى منطق خلاب .. يتكئ على خلفية الإحساس بالظلم ..

وإذا بك أمام عنب معتق يخدر الإحساس بالمسئولية ..

وإذا الأتباع بلا كيان :

لقد سلبوا حرية التفكير .. ومطلوب منهم فقط أن يفكروا كما أعد لهم :

فلا يسمعون ما يقال .

ولا يرون ما يحدث .

ولا ينفذون ما يريدون !

إنهم يعيشون فى سجن واسع .. واسع .. ولأن السجن بلا أسوار فهم لا يحسون به !

إنهم يركبون «سيارة» واحدة .. لكنهم لا يدرون إلى أى هدف يتجهون ..

ومع ذلك .. يزودونها بالوقود .. دون أن يسأل أحدهم إلى أين هم ذاهبون؟!!
إنهم يساقون باللسان الفصيح .. لا بالفكر الصريح .. الذى يلسع بأسئلة تطلب جوابا شافيا .. وليت شعرى : إذا كان هناك من يأكل أموال الناس بالباطل .. فأسوأ منه ذلك الذى يأكل عقولهم .. بل وقلوبهم ..بالباطل !!

أما بعد :

فقد قرأت أن عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه .. لما رشح للخلافة .. جاءه من يبشره بها .. فجعل لك جائزة لو أنه تصرف حتى يعفيه منها ..

بينما غيره ومن شجرة العائلة .. بدا ولعابه يسيل لها ..

فرصد جائزة لمن يعمل حتى يرشح لها !!

فانظر إلى أي حد كان الاختلاف .. وبين أفراد البيت الواحد ..

ألا إنه الإيمان .. الذى يرفع الله به قيمة الإنسان .. وتصرفات الإنسان .

بينما يغيب .. فتختلف المعايير !!

تـلاميــذ ..
مـع إيقاف التنفيذ !

سـجـا الليـل .. وغـارت نجـومـه .. وعلى نـاصيـة الطريق .. وقف الفتـيـان الثلاثة..وألقيت عليهم السلام .. فرد منهم واحد .. وسكت صاحباه .

واقتربت من ثلاثتهم وتساءلت :

لماذا لم يكن رد السلام جماعياً ؟

فقال كبيرهم:

رد السلام فرض كفاية .. إذا قام به البعض سقط عن الآخرين .

وأجبته :

إن الظلام موحش .. وإذن فنسبة الخوف أكبر فى أنفس السابله .. فإذا كان الرد جماعيا .. كان طاردا للخوف . محققا للأمن والقرار .

ثم إنكم عـائدون الآن من اجتـمـاع صـاخب .. قوطع فـيـه خطيـبكم بالـهتـاف والتصفيق .. فهل سكت صاحباك عن الهتاف والتصفيق ..لينوب عنهما زميلهما ؟!

أبداً .. لقد كان التصفيق الجماعى حارا .. وكان الهتاف يشق الحناجر ؟!

أنت تريد « تفصيل » السنة على هواك !

وأنت مطالب أن توزع عـواطفك بـالقـسطاس المسـتـقـيم .. بدل أن تجحف فى القسمة ..

أنت مطالب بالتحليق فى أفق الإنسانية الأعلى :

يقول التوحيدى :

(الإنسانية أفق :

والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع .. ودائر على مركزه :

إلا أن يكون موقوفا بطبيعته .. مخلوطا بأخلاق بهيمية :

ومن رفع عصاه عن نفسه . وألقى حبله على غاربه . وشتت هواه فى مرعاه . ولم يضبط نفسه عما يدعو إليه بطبعه ..

وكان لين العريكة لاتباع الشهوات الردية .. فقد خرج عن أفقه .. وصار أرذل من البهيمة بسوء إيثاره).

إنكم مأمورون بأن تردوا التحية بأحسن منها ..

وإذا كان الرد جميعا هو الأحسن .. فلماذا تقف عند « الحسن» بينما فى إمكانك أن ترتقى إلى « الأحسن» وبلا مشقة ولا ثمن مدفوع ؟!

وإذن .. فالرد الفردى :

أولا : لا مسوغ له .

وثانيا : يجافى روح الآية الكريمة الداعية إلى توسيع دائرة الإيناس بين الأخوة.

وأخيراً :

أفهم أن يسقط «بعير» بحمله الثقيل فى الطريق ..

فيهرع الناس إلى إنقاذه .. وعندئذ يكفى أن يرد واحد عن بقية إخوانه المشغولين بمساعدة أخيهم صاحب البعير .

أما أن يقف اثنان ..يسمعان التحية .. ثم لا يردان عمدا .. فهذا واحد مما احتارت البرية فيه !

إذا تصدر الحدث

ولك أن تتصور سوء المنقلب . إذا تصدر الحدث مجلس الفتوى :

لسوف يفوت الأمة خير كثير . حين ينحى العلماء ويتصدر التلاميذ ..

ولو كان الأمر أمر دنيا .. لفسد الحال .. فكيف إذا كان الأمر أمر الدين ..
لسوف يفسد الحال .. والمآل أيضا .. وذلك حين يوسد الأمر إلى غير أهله .

ومن المصادفات العجيبة .. أن أدخل فى اليوم التالى .. مسجدا وفى وقت صلاة العصر لأسمع واحداً من تلاميذ نفس المدرسة يحكم بالحرمان من الجنة كل من ترك صلاة العصر .. إستناداً إلى حديث (من ترك صلاة العصر فقد وتر أهله وماله) وكان ولابد من تصحيح الأمر .. ولكن بعد صلاة المغرب ..

أي بعد أن يهدأ الإنفعال .. وقلت للناس :

من ترك صلاة العصر .. من أخرها عن وقتها ..

حتى غربت الشمس .. وكان عامدا ومتعمدا .. فكأنما خسر أهله وكل ما يملك.

تماما كهذا الرجل الذى عاد من عمله فى المساء .. ليجد بيته كومة من رماد .
ورأى أهله جثثا تحت الأنقاض !!

ولماذا كان التقصير هنا جسيما ؟

لأن فرصة نجاح قد ضيعها :

فقد فاته أن تشهد له ملائكة السماء بأنه فى المسجد ..

وآثر على هذا الشرف المنيف جلسة شراب مع الصحاب أو سنة من النوم فى هذا الوقت الذى يعود فيه من عمله مرهقا ..

إنهم أبناؤنا .. تلاميذنا .. ولكن مع إيقاف التنفيذ .. حتى يعطوا القوس باريها .. ويحصلوا من الحياة أثمن ما فيها .

قرأت :

أن أحد علماء الشام .. لم يسمح لنفسه أن يتصدر مجلس العلم إلا بعد أن تتلمذ على ثلاثة آلاف مدرس ..

ثم لا يسمح له أن يجلس مجلس المعلم ..

حتى يجيزه العلماء :

وفى رأى بعضهم : لا تكفى إجازته كتابة .. ولابد أن ينطق بها !!

وهكذا لا يتصدر الحدث .. وإنما يتم له ذلك بعد توفر هذه الروافد من هذا العدد الضخم .. والتى يتحول بها التلميذ إلى نهر دافق بالخير .. والتنوع .. والخصوبة .. والتمكن !

إن فى ذلك لعبرة لشباب اليوم .. الذين يحاولون تصدر المجالس .. وفى حضور المشايخ .. مما يفوت على الأمة خيرا كثيرا ..

حين يفتى العاجز ..

ويسكت القادر !!

ومن تجاربى :

قال الفتى :

تلح بعض السيدات أن أفسر لهن القرآن .. بعدما كنت فقط أحفظهن القرآن..

وقله له :

في المسجد يحدث أمران :

أ - تلاوة القرآن .. لحفظه .

ب- ومدارسته لفهمه ..

أخذا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله .

يتلون كتاب الله ..

ويتدارسونه ..

وإذن فالزم غرزك .. وعلم ما تحسنه .. لا ماتتمناه

أما التفسير فلا يقوم به إلا متخصص ..

واستمع الفتى الطيب إلى النصيحة ..

فأعاد المياه إلى مجاريها..

وأعطى القوس بار بها ..

غرباء .. فى أوطانهم

وفى نفس الوقت .. وبنفس القوة .. تسير تقاليد المجتمع فى نفس الأتجاه .. إلى الحد الذى يحس فيه العلماء بالاغتراب .. وفى أوطانهم . على ما يقول ابن حيان:

وإنى غريب بين بست وناسها

وإن كان فيها موطنى وبها أهلى !!

يقول أحد الأدباء ساخرا من هذا المعيار المقلوب :

[كان أستاذنا توفيق الحكيم يقول : إننا نعيش فى زمن (القــدم) وليس (القلم).. فالاهتمام بضربات القدم أهم من شطحات القلم .. ولو رأى الحكيم ما نشرته الصحف البريطانية أخيراً فى صفحاتها الأولى لاستراح إلى أنه صائب النظرة صادق النبوءة . فقد نشرت الصحف صورة الأشعة للقدم اليسرى للاعب دافيد بيكهام (٢٦ سنة) الذى انكسرت قدمه فى مباراة مع أسبانيا ، والذى كسرها لاعب أرجنتينى مثل مارادونا الذى أخرج بريطانيا من كأس العالم سنة ١٩٨٦ .

وهذا الأرجنتينى الذى حطم قدم بيكهام سوف يخرجها من كأس العالم فى اليابان وكوريا هذا العام !

ونشرت الصحف البريطانية بكاء وعويلا للملايين على ضياع كأس العالم بسبب انكسار عظمة صغيرة فى قدم دافيد بيكهام الذي وصفوه بأنه البطل مثل الأميرال نيلسون والماريشال ولينجتون ، وزنه بيليه ، وبوبى شارلتون !

وفي مجلس الوزراء أعلن تونى بلير رئيس مجلس الوزراء أن الحزن يجتاح الشعب البريطانى لأنه قد فقد أهم عناصر الفوز بكأس العالم !

أما خسائر دافيد بيكهام فكثيرة : ستة ملايين دولار من شركة كوكاكولا ، وثلاثة من شركة بيبسى ، وأربعة من شركة أديداس والنظارات (البوليسية التى اتخذت اسمه والقمصان وعليها رقم (٧) التى سوف يرتبها الملايين .. أما زجاجات الكوكا التى عليها صورته فيستحيل التراجع عنها فقد نزلت الأسواق وجاهزة للتوزيع، ويقال إن هناك أملا ضعيفا فى شفائه واشتراكه فى كأس العالم .

ولا كلمة عن الدماء والحديد والنار والدخان والعار والهوان والوحشية التى تعصف بالشرق الأوسط ، ولاالقنابل الذرية التى ألقاها الأمريكان على أفغانستان ، فالأزمة فى الجزمة .. وقد تضاءلت الكرة الأرضية كلها فصارت كرة قدم .. قدم بيكهام !]

المؤمن فى ذمة الله

سألنى الفتى مسترشداً :

فى خطبة الجمعة .. فسرت قوله تعالى ﴿ إن الله يدافع عن الذين امنوا .. ﴾ فسرتها بما لا يحتاج إلى مزيد ..

لكن المزيد الذى نحتاجه هو : مثال عملى .. ليتأكد للمتآمرين بالمخلصين .. من المؤمنين الغافلين والمؤمنات الغافلات .. ليتأكد للمتآمرين بأن هؤلاء المؤمنين فى ذمة الله .. فى عينه التى لا تنام .. وفى حصنه الذى لا يرام ..

وأن المغرضين مهما حاولوا .. ومهما حققوا بعض النجاح .. فإن أيديهم لا تطول من كان فى ذمة من لا تأخذه سنة ولا نوم .

ومن كان آمنا فى حصنه الذى لا يضام ولا يرام .

وقلت له :

صديقى « عبدالرحيم» رجل اجتماعى من الطراز الأول ..

بمعنى أنه يحول ما يفهمه من حقائق الدين إلى واقع علمى ..

عن طريق الاهتمام بحاجات الآخرين ..

ولكن قريبة « عبدالجبار» كان ضائق الصدر بهذه الحركة المباركة ..

مع أن عزه فى عز قريبه .. وسطوع نجمه فى سماء المجتمع عائد عليه شخصيا بالفائدة ..

ولكنه سئ الحظ بنفسه التى فاتها أن تكون مصلحة .. فضاقت ذرعا بكل دعاة الإصلاح !!

فلا منه .. ولا كفاية شره .. كما يقول أهلنا الطيبون المجربون !

وكان مما يثير العجب عند عبدالجبار .. أن يزداد الناس بقريبه إعجابا !! ومع الأيام .

وكان القدر الأعلى يدبر أمراً .. يكشف به حقيقة الأمر ..

ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينه :

فقد سافر عبدالرحيم .. إلى الصعيد .. فى مهمة علمية ..

ومضى عبدالجبار فى مهمة تجارية . ولأمر ما .. لم تتم الصفقة .. وعاد عبدالجبار خاسئا وهو حسير .. عاد من رحلة السراب بما يستحقه من عذاب !

المفاجأة

وكانت المفاجأة المذهلة :

لقد زعم أنه وجد قريبه « عبدالرحيم » نازلا من نفس قطار الصعيد .. والذى عاد هو فيه ..

وإذن .. فقد وجد « الشماعة » التى يعلق عليها فشله فى إتمام صفقته .. إن عبدالرحيم هو السبب .. وإذا عرف السبب بطل العجب !!

لكن العجب لم يبطل عد صاحبنا .. الذى اتخذ الموقف مسلاة .. ليحمل قريبه مسئولية ماحدث ..

وفى واحد من مجالس الهجوم .. كان من جنود الله عزوجل . والتى لا يعلمها إلا هو .. ذلك الصديق الحميم للطرفين والذى أكد للحاضرين أن « عبدالرحيم » برئ مما نسب إليه ..

ولكن حملة التضليل ما تزال مستمرة مسجلة ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ..

هذا الظلم الذى يسول لصاحبة حين يحدث .. أن يكذب وحين يحدث .. أن يكذب !!

بل إننا كنا فى جلسة صلح .. يمارس هوايته للتأليف بين القلوب ولقد كان هذا الرد قاسيا :

وكان قاسيا لأنه حق فى ذاته ..

ثم لأنه يرتفع بقريبه درجات .. بينما عبدالجبار يصر على التردى به «دركات»

ولكن .. لله تعالى حكمة هو بالغها :

لأنه يخلق من الأسباب .. ما يحقق أمانينا .. ويقهر شانئينا ! .. على نحو لو أنفقت ما فى الأرض .. ما تحقق لك .. عشر معشار ما يحققه الله تعالى لك .

إننا قد ننفعل .. ونحزن .. ثم نحاول حشد قوانا لنرد هجمة الخصوم علينا ..

وقد تفشل محاولاتنا ..

ولكن الواجب هو :

أن نرتفع فوق انفعالاتنا .. ثم نحيل القضية برمتها على «الباب العالى» ليفتح بيننا وبين خصومنا بالحق وهو خير الفاتحين .

ومن فتحه سبحانه أن يكون خصمك نفسه سلاحا من أسلحتك التى تهزمه بها.. حين يسخره الله تعالى لذلك .. على حد قول الشاعر :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت

أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت

ما كان يعرف طيب كرف العود !

أريـــد حيـــاتـــه ..
ويـــريد قتلـــى !!

فى صيف عام ١٩٦٢ .. قرر الامام الأكبر الشيخ محمود شلتوت .. إيفاد بعثة إلى ليبيا .. بعد أن أبلغ أن أداء « المتعاقدين » هناك .. لم يكن على المستوى المطلوب .

وكنت أنا و« الشيخ محمد الأحمدى أبو النور » من بين من تجاوزوا الامتحان بنجاح .. بين يدى لجنة كلفت باختيار من تراه أهلا للوعظ والإرشاد هناك ..

وكان همى مع صديقى « الشيخ الأحمدى » أن نكون معافى مدينة واحدة ..

فلما عرجنا على مقر الجامعة الإسلامية .. بالبيضاء .. (وكان العمل هناك تحت لوائها) رأي مديرها الشيخ مصطفى التريكى أن يكون الشيخ الأحمدى فى « مصراته » بلد المدير ..

وأن يكون الشيخ عماره .. فى طرابلس .. توطئة لتعيينه مشرفا على ركن الجامعة الإسلامية بالإذاعة الليبية : وكانت وظيفة المشرف هى :

القيام بمراجعة أحاديث الزملاء .. ثم يوافق على إذاعتها .. أو لا يوافق .

ومع أننى المشرف .. إلا أن نصيب الشيخ الأحمدي كان أوفر منى . فى الوقت الذى كان الزملاء يتزاحمون راغبين فى أحاديث أكثر ..

وإنما كان نصيبه أوفر :

لأنه أهل لذلك .. وهذا أول ..

والثانى : استجابة لتوجيهات المدير الذى وصانى بالإفادة منه . لكن ذلك الوضع الجديد أثار حفيظه بعض الزملاء من قدامى المتعاقدين .. الظانين أنهم أولى بالأحاديث ..

هذا الظن التى تحول إلى جلسات سرية مسائية بينهم .. لينظروا كيف يصنعون .. أمام هذا الخطر الوافد !!

وكان موقفى حساسا للغاية وللأسباب الآتية :

١- فقد أنوب عن « الشيخ الأحمدى» فى إذاعة أحاديثه .. لأنه كان يعمل بعيداً..

٢- وقد تكون فى اجتماع بإدارة الوعظ .. ثم أستدعى أنا شخصيا .. لفترة ثم أعود .. فيظن الزملاء أن ذلك الاستدعاء جزء من مؤامرة عليهم .. وماهو إلا تكليف بكتابة كلمة باسم شخصية كبيرة .. وكنت أمليها ساعتها إملاء .. فى مناسبة دينية أو قومية هناك .

لكن الزملاء فهموا الأمر على غير وجهه .. فكان الاتهام .. ثم كان الخصام..

لكن البخار ظل مكتوما لأن مدير الجامعة كان من وراء هذا النشاط الجديد .. والجميع يخافونه على عقودهم أن تنتهى .

ثم كان تدبير الله تعالى :

حين عز على زميل من القدامى .. أن يعرض كلمته على لإجازتها .. واستعان بأصدقائه فى الإذاعة ثم سجلها دون أن أعلم بذلك :

ولما ذهبت إلى الإذاعة طالبت بسماعها .. ففوجئت بأخطاء تمس اللغة .. والعقيدة أيضا .. فقررت إلغاء الحديث .. ورجوت واحدا ممن كان فى الإذاعة أن يجدد تسجيل نفس الحديث بدلا منه .

فلما تهيأ صاحب الحديث الأصلى والذى ألغيته ليسمع حديثه فى اليوم التالى.. فوجئ بما حدث !!

وعندئذ قامت الدنيا .. ولم تقعد ..

ثم كان الإعلان من قبل رئس لجنة الإشراف « الليبى» عن اجتماع طارئ

ووقفت لأدافع عن نفسى:

أولا : إن ما حدث فى كلمة زميلى خطأ .. وليس خطيئة .. وهو من جنس ما كان يرحب به الفاروق عمر حين قال :

رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى ..

فأنا أستحق رحمة الزميل ..لا غضبته تلك المضرية !

ثانيا : لقد حميت الزميل من غضب الملايين .. التى سوف تضبطه متلبسا بخطأ لا يقع فيه صبى فى الكتاب ؟!

وثالثا : سوف يتجه غضب المستمعين إلى مجموعة الوعاظ بجريرته .. وما يترتب على ذلك من زعزعة الثقة بالدعوة ذاتها .

ورابعاً : لقد أخطأ كاتب فى عهد الفاروق رضى الله عنه ..

فرفع المجرور .. فكان عقابه : الضرب .. والطرد من الوظيفة !

ونحن - حاشا لله - لا نطالب بالضرب ولا بالطرد ..

وإنما فقط : احترام النفس حتى لا نورطها فى خطأ يمكن تلافيه .

ويبدو أن حديثى حقق ثمرته ..

وذلك أن الدنيا التى أقامها زميلى .. أقعدها المنصفون من الزملاء .. فاسكتوا صوت الغرور الذى يستبد بنا أحيانا .. فنظن أننا فوق النقد !

مع أن بحر اللغة عميق عميق .. واسع واسع

حتى أن بعض القمم فى مجال « النحو » ماتوا .. قبل أن يحققوا مآربهم منها ! ومن «حتى» بالذات !!

ولم يكن ذلك سيئة منهم .. وإنما كان حسنة تضاف إلى حسناتهم حين اعترفوا بالعجز .. إزاء لغة لا تعطيك كل أسرارها .

يقول بعض علمائنا :

هولاء النحاة : أولوا .. وعللوا .. وأثبتوا ودللوا .. وناقشوا وجادلوا .. وذهبوا فى التعليل والتدليل كل مذهب ..

ثم .. إذابهم كالقائم على ظهر الحوت :

(لا يميل إلى جانب .. إلا ميل به إلى جانب ..

ولا يدرى متى يغوص به الحوت . فيدعه فى اليم غريقا)

يقول السيوطى :

(مات الكسائى وهو لا يعلم حد «نعم وبئس» وأن المفتوحة .. والحكاية ..

والخليل بن أحمد لم يكن يحسن النداء .

و سيبويه .. لم يكن يدرى حد«التعجب».

وأن رجلا قال « لابن خالوية»

أريد أن تعلمنى من النحو ما أقيم به لسانى ..

أنا منذ خمسين سنة أتعلم النحو .. وماتعلمت ما أقيم به لسانى ..

وملك النحاة « الحسن بن صافى» تعب فيما سماه :

(المسائل العشر .. المتعبات إلى يوم الحشر)

وقد أمر بأن توضع هذه المسائل معه فى قبره ..لعله أن يحلها فيه ؟!

وإذن .. فلا غضاضة فى أن نخطئ ..

لكن الغضاضة أن تأخذنا العزة بالإثم .. فنذكر فقط « كرامتنا » المضيعة .. ثم ننسى .. أو نتناسى كرامة اللغة التى هى مصدر كرامتنا .. لأنها لغة كتابنا الكريم .

والذى كان من حقه علينا أن نجعل من شكرا لله .. عنايتنا بلغته .

ولنتعلم من غيرنا :

فعندما احتل الألمان فرنسا .. قال الأستاذ لتلاميذه :

اعلموا يا أولادى :

أنكم أضعتم بلادكم ..

وسلمتموها إلى عدوكم ..

بإهمالكم لغتكم) !!

القمة المدببة !

صعد الفتى سلم «السيارة» يتوكأ على عصاه . ثم جال ببصره فى وجوه الراكبين المشفقين عليه أن تتعثر خطاه . فيحدث ما لا تحمد عقباه .

ثم استقرت عيناه فى النهاية على أحد الركاب .. ظهر أنه شخصية مرموقة فى قريته .

وتبادل الإثنان تحية الصباح ..

وجلس الفتى إلى جوارى .

فلما جاء «محصل السيارة» لمحت الفتى يسرع بيده إلى جيبه فى محاولة لدفع ثمن « تذكرتين» له .. ولهذا الرجل المرموق .

وأحسست على وجه الفتى لهفة المشوق إلى دفع الثمن .. مجاملة يرضى بها من بيده مقاليد الأمور فى قريته .

وفجأة يجيئه صوت هذا « الرجل الغنى» من عمق السيارة .. منكرا عليه هذه المحاولة .. مؤكدا أحقيته فى تحمل ثمن التذكرتين ..

وكما يقول أهلنا الطيبون فى الريف .. لمحت القنديل ينطفئ فى وجه الفتى بهذا الرد الذى زاد عليه قوله :

إنه من العيب أن يدفع له أحد !!

هكذا ليظل فى الصدارة دائما .. وإذا حضر الماء بطل التيمم !

وكأنما جرعه كأس الهوان حتى الثمالة .. حتى آخر قطره .. جزاء وفاقا .. حين سولت له نفسه أن يفكر فى هذه المبادرة !

وتأملت الشاب العائد من المجاملة الفاشلة مقهوراً .. تصرخ تعبيرات وجهه بما فى باطنه من حسرات .. لأن محاولته لم تتم !! ولما أصابه من الغم .

أخـلاق القـريـة

وقلت فى نفسى :

أين أخلاق القرية فى سلوك أهل القرية الظالم أغنياؤها ؟!!

لقد كان هناك أسلوب آخر نخاطب به هذا الفتى .. شاكرين له أريحيته من مثل قولهم :

ما بين الخيرين حساب

أو خيرك سابق ..

أو دعنى أقض بعض جمائلكم على .. حتى ولو لم تكن هناك جمائل سابقة!

لكنه لم يفعل .. وبقيت مسافة الخلف بين جيلين .. كما هى ..

وحاولت أن أملأ فراغ الوحشة الناجمة عن هذه الغطرسة ..

لكن الرجل الغنى مايزال يمارس هوايته فى كسر عزة الشاب المعوق .. فقال له:

احتفظ بالتذكرتين معك .. ليظل الشاب فى موقف التبعية .. وليخلو للمغرور الجو مع «سيجارته» .. وأحلام يقظته !!

ولقد كانت شحنة الغرور غامرة .. إلى الحد الذى أحسست فيه بمعنى الاغتراب الذى يعانيه هذا الشاب ..

هذا الاغتراب الذى عبر عنه واحد من المطحونين بقوله : غيرتنى الأحداث :

وبعثرت فى داخلى الأشياء .

فلا الحوار ممكن .. ولا الصراخ ممكن ..

كسرنى المنطق الغشوم .. ولخبط خرائط الوجدان

فلا زرع .. ولا ضرع .. ولا عشب .. ولا ماء ..

لا دفء ولا حنان

وكأنما كانت « السيارة » صورة مصغرة لهذه الدنيا الواسعة .. الجامعة لألوان البشر . ولأصناف من ظواهر الاجتماع .

والتى منها تلك الصورة الكابية التى رأيت .. والتى عمى فيها واحد من المغرورين عن حق الإنسان فى الكرامة ..

لقد كان مما يسعد الرجل الغنى .. بل مما يعظمه فى عيون أهله القرية .. أن يعود مع هذا الشاب الذى كان من الممكن أن نسعده بشعور العطاء .. وما فيه من معنى العزة ..

ولكن بعض المغرورين يحاولون أن يحطموا خلايا النحل ..

أن يحرموا الجيل الجديد من الإحساس بالذات .. ولو لحظة من زمان .

لقد أصر هذا الرجل الغنى على أن يعود الفتى مكسور القدم .. ومكسور الخاطر أيضا فى سبيل أن يظل الغنى على القمة وحده .. لأن القمة فى نظره مدببة لا تتحمل سواه !

هؤلاء الذين يطلبون العزة مخصومة من عزة الآخرين ..

والله المستعان .. على طغيان الإنسان !

أما أنا .. فقد مارست هوايتى فى تأمل الحياة من خلال زجاج نافذة السيارة :

تأملت الخضرة .. والماء .. وجنات معروشات وغير معروشات ..

والنخل :(صنوان وغير صنوان) ثم تذكرت قول الشاعر :

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهمو « لا يستوون كما لا يستوى الشجر

هذا له ثمر : حلو تذوقه » وذاك ليس له طعم ولا ثمر ..

رحلة العودة

ولم تكن رحلة الرواح فى هذا اليوم بأقل إثارة من رحلة الغدو :

صعد الفتى هذه المرة صحيحا معا في .. مغرورا .. وليس كزميله ذاك مكسوراً !

وكانت جل مقاعد السيارة خالية ..

وبدل أن يجلس إلى رجل مثله .. آثر أن يجلس إلى جوار فتاة انتبذت مكانا قصيا .

وأحسست بالخجل يطفح على وجه الفتاة .. التى فرض نفسه عليها . ذلك الفضولى الطارئ !

وعرفت السر :

فربما صعد السيارة من يعرفها من أهلها أو جيرانها .. وقد يكون خطيبها .. وإذن فقد يفسر المشهد على غير وجهه الصحيح .

ومن تدبير الله تعالى أن ينقذها عز وجل بزميلة لها فتستدعيها لتجلس إلى جوارها .. إنقاذا لها من ورطتها !

وعند نهاية الرحلة نزل الشاب حين نزل .. وبدأت أجاذبه أطراف الحديث .. ثم أهديته عدد « الأهرام» فى ذلك اليوم .. وقلت له .. إقرأ الجريدة .. وخاصة هذا الخبر والذى يقول :

أعلن النائب العام فى بريطانيا استقالته من منصبه بسبب رؤيته يحادث فتاة عند إشارة المرور .. ثم ترك للنائب العام الجديد تقدير حجم هذه الجريمة التى ارتكبها!

وقلت للفتى :

لقد خسر النائب العام وظيفته .. لكنه كسب سمعته !

وودعت الفتى .. الذى وجد نفسه فى حالة لا يحسد عليها ..

فى لحظة يتعلم فيها عن كثب مالم يتعلمه فى الكتب !

ولعل تداعى المعانى يصل به إلى قرار يضع حدا لمثل هذه التجاوزات .. لأنه مادام لا يحب ما حدث لأخته .. ولا لأمه .. أو عمته .. فكذلك ينبغى ألا يحبه لبنات الناس وأمهاتهم وعماتهم !

ودرس آخر

أن يتريث الأحرار قبل أن يحكموا على بناتهم . ثم ليدرسوا القضية تماما .. فقد يكن بريئات .. عفيفات .. وقعن فى شرك فضولى بغيض .. ربما تاب هو الآخر مما فعله ..

وكفى الله المؤمنين القتال .

قيمة الرضا

عندما تكون داخل «البستان» .. فإنك لا ترى إلا مجموعة من الأشجار والأزهار ..

لكنك إذا خرجت من البستان .. ثم كنت منه بعيدا .. فإنك ترى مساحة أوسع:

ترى السور المحيط .. والأبواب .. وكل الأشجار والأزهار .

ولو أتيح لك أن تصعد فى السماء على متن طائرة .. ثم نظرت من نافذتها .. لرأيت ذلك البستان نقطة ضئيلة فى بحر كبير .

وتبين لك كل ما فى الوادى مبسوطا لعينيك ..

وإذا طلب منك أن تصف ماترى .. لجاء حكمك دقيقاً صائبا ..

قلت ذلك للفتى الذى جاء يسعى مغيظا محنقا .. لماذا ؟

إنه ذكى .. لكنه فقير ..

وبينما زميله الغبى الغنى يرفل فى حلل النعيم كأنما يسارع القدر الأعلى فى هواه .. إذا به هو صفر اليدين من نعم الدنيا ..

مع أنه أذكى منه وأتقى .

قلت له : لقد خانك الذكاء الذى لم تستوعب به القضية برمتها ..

ثم لم تساعدك تقواك على فهم صحيح لما ترى من فقرك وغنى صاحبك ؟!

لقد قادتك نظرتك الضيقة .. إلى حكم جائر خاطئ ..

والسبب هو : سوء الظن الذى شكل جدارا سميكا .. حال بينك وبين رؤية القضية من فوق .. من أعلى ..

ولو قد فعلت .. لتبين لك الموقف على غير ما صورت لك أوهامك .. حين ترى على الساحة الكبرى للحياة من هو أفقر منك .. وأضعف منك .. وقد يكون مع هذا راضيا بحظه فى الحياة .

وعليك أن تسأل نفسك :

هل ترضى أن تكون مكان صاحبك مسلوب الذكاء .. شحيح اليد .. معقود اللسان .. مضيع الكرامة .. ومعك مال قارون ؟!!

بالطبع لا ..

أو هكذا يقرر ذكاؤك .. وتؤكد تقواك !

لقد وضعك الله تعالى فى الموقف الأفضل :

فأنت العالم :

فلماذا تجعل من نفسك مشكلة .. بينما أنت قادر بالعلم على أن تكون قائد الركب . وحادى القافلة ؟

كن كهذا العالم الذى قال معتزا بعلمه :

(إن لذة تفكير أمام المدفأة .. أجمل مما فى الدنيا ..

ويكفينى : أن الناس محتاجون إلى .. وأنا غير محتاج إليهم ..

إنهم يسألوننى علمى .. وأنا لا أسألهم أموالهم . لأنى بما قسم الله تعالى راض .. ولو لم أرض لم تكفنى أموال الدنيا .

فلا تقل يارب : متعنى كما يمتعون ..

وليكن دعاؤك ..

اجعلنى يارب أرضى فوق ما يرضون)

ولكن ذكاء الفتى كان شديدا .. ومن ثم كان سر متاعبه :

لقد كان يهتف قائلا :

إن الرزق الواسع المغدق على هذا الغنى .. أشد على من ضيق الرزق نفسه !!

وقلت له : وهذا هو الحسد البغيض !

وأين الغبطة !

فلتكن أمنيتك أن تكون مثله - لتكونا فى المتعة سواء .

وقلت له :

إن صاحبك الغنى معذور .. فهو لم يفرض عليك أن تكون هكذا .. ثم هو لم يغتصب حقا لك ..

وأمامك الطريق لاحب .. يسعك .. ويسع الآخرين ..

فامض لما أمرك الله كما مضى هو .

ولا تكن من الذين يعجزون عن مواجهة الواقع .. وبدل أن يكونوا عمليين .. يهربون إلى الخيال أو الخبال فيهاجمون العاملين الآملين .. مكتفين بالبقاء فى غرفة العمليات .. يقذفون بالنقمة واقعا يطالبهم بالحركة فى اتجاه المستقبل .. وإنهم لواجدون رزقهم إذا ما «دبوا» إليه نشطين !

ألا وإن الواقع من حولك ليضج بهذه الحقيقة وهى :

ما من أحد فى الدنيا إلا وهو مثلك :

يجد من هو أفضل منه فى شئ .. ومن هو أفضل منه فى أشياء !

فكلنا فى الهم شرق !

وعلينا أن نطرح أهواءنا .. لنتسلح بهمة نتجاوز بها واقعنا الأليم .

[حوار .. مع مدخن]

أصبحت« السيجارة » فى يد صاحبى .. وبين شفتيه عادة يومية ..

بل أعز عليه من الطعام والشراب .. إلى الحد الذى كان يحمله أحيانا على تحريض غير المدخنين من أمثالى أن يكونوا مثله فى الإدمان سواء . مرددا :

الدنيا .. سيجارة وكاس !!

وأدركت أثر « الإعلام » فى تأصيل هذه العادة الرديئة :

فالمترفون يختارون المؤلف اللماح .. والملحن الداهية ..

والمغنى : صاحب الصوت الشجى .. ليتكون منهم جميعا فصيلة تقتحم مزاج الآمنين .. لا بالسيجارة .. وحدها .. وإنما بالكأس أيضا ..بحيث لا تستطيع الضحية عنهما حولا ..

وقد أشار القرآن الكريم إلى خطة الماكرين الذين لا يستهدفون مجرد الخروج عن الخط المستقيم .. وإنما يريدون أن يميلوا بالضحية ميلا عظيما .. وذلك قوله عزوجل :

﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ النساء : ٢٧-٢٨ .

وبحس الداعية كنت أتعامل معه :

فقد أتغافل عنه لحظة انسجامه مع هوايته .. لأن مزاجه عندئذ غير قابل للتفاهم .. وربما لو زدته انتقادا .. لزادنى تحديا وعنادا .

بل كنت أنتهز فرصة «سعاله» مع آخر نفس .. هذا «السعال» الذى يكنس كل ما تبقى من متعته المزيفة ! إلى حد أنه قد يلعن التدخين .. والمدخنين !!

وعندئذ أحس أننى معه متفقان على لعن التدخين ..

وإن .. فنحن معا نقف على أرض مشتركة .. ولقد حانت فرصة الإنطلاق من نقطة الاتفاق .. إلى ما يجب أن نحققه من الإقلاع عن التدخين ..

مــن دروس الدعــوة :

وعندئذ تطيب مناقشته الحساب فى لحظة يطلب فيها الخلاص :

وكنت أقول له :

ثمن « علبــة الســجـائر » والذى تحـرق بـه عـمـرك .. يرسـل مـثله صـديقك « محمــود » ثمنا لرغيف يطعم به جائعا ..

هذا فى الوقت الذى يتشوق طفلك الصغير إلى قطعة الحلوى ..

وابنتك المريضة إلى حبة الدواء ..

لا تزعم أنك غير قادر على الإقلاع عن عادة امتدت جذورها فى أعماقك .

وقلت له :

أنا لا أريد لك أن تقلعـها .. فـهذا فـوق قـدرتك .. ولكنى أطمع فى أن تهزها هزا ولو خـفـيـفـا .. فـإنهـا مع الأيام سـوف تميل .. وتجف أعـوادها .. وتسـاقط أوراقها..

واسأل نفسك :

أليس من العار أن تفشل فى محاولة ينجح فيها الطفل الرضيع .

ألا يؤلمك أن تكون إرادته أقوى من إرادتك ؟

قد تقول : كيف ؟

وأقول لك مع المربين :

إن ثدى أمه .. أعز عليه .. فهو أحوج إليه .. لأنه حياته ..

ومع ذلك .. وهو أضعف منك مقاومة .. ومع ذلك .. يحولون بينه وبينه .. فينسجم مع الوضع الجديد .. وينسى لعبته المفضلة !!

ولقد مررت أنت فى طفولتك بهذه التجربة .. ثم نجحت فى تجاوزها .. فكيف تفشل فى تجربة تجاوزتها طفلا ..

ثم أنت اليوم تفشل فيها رجلا ؟!!

وكأنما صار الفتى ذلك الطائر الذبيح .. الذى ينتفض للمرة الأخيرة .. ثم ليسكن إلى الأبد !!

وذلك ما قاله .. أو ما تقوله وهو يترنح تحت ضربات الحق يحيط به :

قال :

وإذا توقفت عن التدخين .. وتوقف معى ملايين المدخنين .. فمن أين يأكل البقال !؟

وقلت له :

الأرض واسعة .. ونحن مطالبون بالانتشار فيها .. لنأكل من رزق الله الواسع..

ثم إن البقال موقن سلفا بأن قضية الرزق بيده سبحانه وتعالى .. وأنه عز وجل إذا أغلق بابا فإنه يفتح أبوابا ..

ولقد أخذته العزة بالإثم .. لكنها كانت محاولة أخيرة يغطي بها حمرة الخجل ثم بدأ التغيير .. بل لقد انضم إلى كتيبة الهجوم على كل مدخن غافل .. أو متغافل ..

العمل الإسلامى
إلـى أيـن ؟!

إن المتخصص فى « الكهرباء » .. لا يعرف فى .. التفسير.. ألف باء.. !

فكيف يتصدر مجالس التفسير .. حدث .. بينما العلماء حاضرون .. ولكنهم عن مجالس العلم مبعدون ؟!

كيف يخطط للمستقبل .. من لا يرى تحت قدمه ؟!

إن الحديث فى قضايا الإسلام يجب أن يتحمل مسئوليته أهل الخبرة .. وليس أهل الثقة !

وقد يكون هناك عالم يدعو إلى الله تعالى على مدى نصف قرن من الزمان .. ولكنه ينحى .. لينوب عنه أنصاف المتعلمين من هنا .. وهناك ..

قال لى الشاب المتحمس :

نحن نشرح للطلاب والطلبة كتابك « تربية الأولاد » قلت له :

وفى قريتى ؟ وأنا مؤلف الكتاب و ما زلت فى الأحياء ؟!

إن أهل مكة أدرى بشعابها .. ومؤلف الكتاب أدرى بمعناه .. ومغزاه ..

ولكنه الخوف :

الخوف من أن يقول المؤلف شيئا غير ما ألفوه !

ومن أجل ذلك .. فقد كان من تدبيرهم ألا يعرف المؤلف أين يقع مكان المؤسسة الدينية فى المدينة التى يسكنها وهى منه على مرمى حجر ! وفى القرية حتى لا يقول شيئا يحطم بيوت الزجاج !!

وخطأ « مشهور » خير من صحيح مهجور !!

أو هكذا قالوا .

ومن تقدير الله تعالى - لجبر خاطر المنكسرين - أن يحاول البعض ذر الرماد فى العيون .. بدعوة هذا المتخصص المهجور لإلقاء محاضرة .. أحياناً ! وفى مكان مهجور!.

وبكل المقاييس ينجح اللقاء ..

ثم يكون هذا النجاح نفسه .. سببا فى حرمان هذا المتخصص من لقاء بعد ذلك !!

فإذا رحت تسأل عن السبب ..

لم تجد إلا قول الشاعر :

مـــال واحتــجــب

وادعـــــى الغــضـــب

ليــت هــاجــرى يشـــرح الســبب !!

خــواطر انتخـــابيـــة

ما تزال هذه الصورة تعلق بخاطرى :

صورة « المرشح» يعرض على الناخبين لقاء له مع «زعيم الحزب» الذى يشد على يديه مبتسما .. جاعلا هذا المشهد أساس دعايته الانتخابية .. ورصيده الأكبر فى معركة البقاء .

وكنا - ونحن طلاب - نشفق على شيخنا المنافس .. ونشك فى قدرته على الوصول إلى مقعد البرلمان .. وسط هذا الطوفان .

ولقد سقط صديق الزعيم عن جدارة واستحقاق !!

ولكن تبقى العبرة التى أحاول اليوم إبرازها :

لقد حاول المرشح الحزبى أن «يستورد» من الخارج عناصر شخصيته ..

فهو لا يحس من داخله بأهليته للوصول .. فكان ذلك الأقرع الذى يباهى الناس بشعر غيره !

والمفروض أن يتقدم الإنسان بفضائله الذاتية لتكون جواز مروره إلى المقعد الخالى ..

قــواعد الاختيــار

ولكن .. ما هى قواعد اختيار القادة ؟

فى سيرة عمر رضى الله عنه غناء :

فعندما خلت وظيفة فى عهده اشترط فى « المرشح» توفر ثلاثة أمور :

١- أن يكون رجلا : إذا كان فى القوم - وليس أميرهم - بدا وكأنه أميرهم.

وإذا كان فيهم وهو عليهم أمير - بدا وكأنه واحد منهم .

٢- لا يميز نفسه على الناس فى ملبس . ولا فى مطعم . ولا فى مسكن .

٣- يقيم فيهم الصلاة . ويقسم بينهم بالحق .. ويحكم فيهم بالعدل . ولا يغلق بابه دون حوائجهم .

ومعنى ذلك كله :

أن يكون تحركه لخدمة الناس منهاج حياته اليومية ..

والذى يرفعه مكانا عليا .. وإن لم يكن فى منصب رسمى .

ولو وضعته الأقدار فى منصب رسمى جعله التواضع واحدا منهم لا يمتاز عليهم..

على أن يكون مثلهم فى الملبس .. والمسكن .. والمطعم لا يستأثر بحظ أوفى. بينما القاعدة تشكو حظها .

وأن يلتحم بجماعته كقيادة صالحة مصلحة تؤمهم فى صلاتهم وترسى دعائم العدل بينهم .. على أن تكون حاجات الناس همه الأكبر .. والدائم .

الناظرون بعيون حولاء

لكن بعض الناس تستهويهم المظاهر الخلابة .. ولا يذكرون حين التصويت هذه الفضائل العملية .. وربما لاحت لهم بعض شكليات جعلوها أساس الاختيار .. جاعلين من المعرفة السريعة دعامة لمستقبل لا يستقر بمثل هذه النظرات المتعجلة .

يروى أن سليمان بن عبدالملك أراد أن يستعمل «يزيد بن مسلم» كاتبا .

فاعترض عمر بن عبدالعزيز .

فقال سليمان وهو يزكى «يزيد» :

إن «يزيد» أمين لم يسرق درهما ولا دينارا .

فقال عمر وهو يبتسم :

هل أدلك على أفضل منه ؟

إبليس !!

لم يسرق درهما واحدا .. لكنه أفسد كثيرا من الناس !

وما أكثر الذين لا يسرقون مالا .. ولكنهم يسرقون رجالا !

يكفون أيديهم عن المال فى موقع معين .. ليكون ذلك رشوة يقدمونها للناس.
حتى يتغاضوا بعد ذلك عن أيديهم الملطخة بدماء الشرفاء وقوت الفقراء ..

منهج الإسلام

ألا وإن لنا فى اختيار شريكة الحياة عبرة :

لقد استبعد الحديث الشريف كل المظاهر البراقة .. واستبقى القيم الأصيلة لتكون هى معيار الاختيار :

فإذ جاز اختيار المرأة الجميلة .. الغنية .. ذات الحسب والنسب .. فإن ذلك لا يخفى حقيقة أن اختيار ذات الدين هو الأساس ..

إن وظيفة الوالد لن تنتقل إليك .. وكذا ماله وعيا له .. وحسبه ونسبه ..

أما فضائل البنت الشخصية فهى التى ستتعامل معك بها .. فهى المقصود الأصلى .. وعليها يكون المدار . فى الاختيار .

عبرة للمرشحين

لم يكن صلى الله عليه وسلم يتملق عواطف الناس .. بل كان صادقا مع نفسه ومع الحق وهو يعرض دعوته .

ولو حدث من الأمور الخارجية ما يمكن له فى قلوب الناس .. لما استغله لصالحه مكتفيا بما يملكه من مكارم الأخلاق :

وفى هذا الموقف شاهد :

كسفت الشمس يوم موت ابراهيم ابن النبى صلى الله عليه وسلم .

فقال الناس :

كسفت الشمس لموت ابراهيم . فقال صلى الله عليه وسلم :

إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله . ألا وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته .

فإذا رأيتموهما كذلك فافزعوا إلى المساجد . ثم قام فقرأ بعض سورة «الذاريات» ثم ركع . ثم اعتدل . ثم سجد سجدتين . ثم قام ففعل كما فعل فى الأولى [١] .

فانظر ماذا ترى :

ظاهرة كونية تصاحب موت ابراهيم فيما يشبه أن يكون حزنا عليه .. ورثاء له..

وبالفعل .. ظن الناس ذلك .. فربطوا بين موته وبين حدوث هذه الظاهرة .. وإذن فهى فرصة ذهبية للوصول إلى الزعامة !؟

---

(١) الحديث فى جامع الأحاديث . برقم ٢٩٨٢٩ / ٨٠٤ .

ولو كان صلى الله عليه وسلم يبحث عن مجد شخصى .. لانتهز الفرصة -وهى مواتية - ليثبت وجوده .. ويسوغ استحقاقه للمركز المرموق .. اعتمادا على ظن الناس .. وخداعا لهم .. غير أنه لم يفعل ..

وما قيمة الرغوة العائمة تخدع الناس يوما .. حتى إذا هبت الريح .. ذهبت جفاء ؟

فلتبق الثقة بأخلاق الإنسان الشخصية .. رصيدا يبقى مع الأيام .

وقد تتدخل ظروف قاهرة لا تتمكن بها من الوصول إلى ما تريد ..

ولا بأس ..

فللناس أعين .. ولهم كذلك آذان :

ترى .. وتسمع .. وسوف تعطيك من لدنها قلوبها التى تحيط بك - ما حييت - هالة تبدو فيها قمرا منيراً .. مهما كان موقعك : فى الحقل .. أو فى المصنع أو فى الديوان .. والقضية هى :

هل تريد حياة طويلة .. ضيقة ..

أم حياة عريضة .. ولو كانت قصيرة الأمد ؟

لقد مات مصطفى كامل بعد الثلاثين بقليل ..

ولكنه بقى فى الضمير الوطنى مثالا يحتذى .. وذكرى لا تموت ..

بينما السائرون فى الطريق الضيق الطويل لم تضف إليهم أعمارهم جديدا..

ويا ليت قومى يعلمون .. وليتهم حين يعلمون .. يتعلمون !

ذكــــريات
أسيــوط

تسلمت خطاب تعييني مدرسا بمعهد أسيوط الديني في الثامن من أكتوبر عام ١٩٥٧م .

وتسلمت عملي في اليوم التالي .

وعندما كنت أتأهب للسفر .. حذرني بعض الزملاء من أسيوط عامة .. فأهلها غلاظ بخلاء ..

ثم من « معهد أسيوط » بالذات .. لأن شيخصه (الشيخ ثابت أبو المعالي) صعب المراس .. مستبد برأيه ..

وعندما دخلت المعهد لأول مرة .. تغيرت الصورة تماما .. كما تغيرت في ذهن الإمام الشافعي .. عندما تأهب للهجرة إلى مصر فاقترح عليه بعض زملائه أن يأخذ معه زادا .. وأن يتخذ له عند سلطانها حظوة .. إذا أراد أن يعيش فيها بسلام .. فلما دخل مصر .. دخلها آمنا .. مطمئنا ..

لقد كان المرحوم « الشيخ ثابت أبو المعالي » رجلا .. فيه حدة فعلا .. لكنها كانت في الحق ..

كانت حدة مشتقة من مثل حدة عمر رضي الله عنه .. الذي كان يلاحق بدرته صور الإنحراف .. لكنه هو هو بعينه الذي كان يسمع الآية القرآنية فتتصدع قلبه .. فيعود إلى بيته وقد خنقته العبرات .. ثم يعوده العواد شهراً كاملا وهو ملازم للفراش لا يريم!!

وقد ظهر ذلك فعلا .. عندما كلفني بأول خطبة للجمعة في مسجد المعهد .

الذى يطل على النيل وصعدت سلم المنبر على غاية ماتكون الرهبة .. حتى لأكاد أسمع وجيب قلبى !

وفوجئت بالشيخ يبكى بين يدى المنبر .. ناظرا إلى من خلال دموعه الغزار ؟!

لم أكن عندئذ أقدم علما لدنيًا .. وإنما كنت أشعر بالاغتراب لأول مرة فى حياتى .. فكان الأداء مؤثرا لهذا السبب ..

فلما قضيت الصلاة .. أقبل على الشيخ مشوقا .. وأنا لا أكاد أصدق ما أرى و ما أسمع ؟!

ومما سمعته منه : ما كنت أظن أن هناك من يفرض البكاء على .. إلا أنت !!

وبدأ العام الدراسى .. الذى قضيته بين شيخ : يقدر العاملين .. وطلاب كانوا رياحين .. فكان المعهد بهذا المعنى « أسرة » .. مكان الأسرة التى خلفتها من ورائى فى محافظة المنوفية ..

وتراجعت مشاعر الاغتراب .. فى هذا الجو المستطاب .. مع الأحباب !

فلما صدر قرار نقلى إلى « معهد دسوق » نصحنى بالبقاء ..

وكنت معه بقلبى .. لكن .. كانت حسابات الشباب عندئذ تدورعلى محور آخر يؤكد ضرورة العودة إلى العش المهجور بين أخوة النسب فى محافظتى استعدادا للزواج !

وكان لابد من النقل .. وكان هذا الحفل الذى أقدمه اليوم .. كذكرى لمن كان له قلب ..

لا أقدمه على أنه معرض علم يقتبس .. وإنما درس فى الوفاء .. الذى عز اليوم أن تراه ، والذى يشير إلى ما يلى :

١- كل الخريجين اليوم .. وبلا استثناء .. حراص على أن يكون عملهم فى محل إقامتهم ..

ولو تحقق أملهم .. فما هى النتيجة ؟

أ- قد تكون بينهم وبين بعض زملائهم أو طلابهم أهل القرية شحناء .. ومن ثم ننتقل من الشارع .. إلى المعهد.. وينعكس ذلك على الأداء طبعا !

ب- لا يحسون بمتعة التنقل .. والاغتراب .. واكتساب صداقات جديدة ..

وتمضى أيامهم بطيئة .. متثاقلة الخطى .. لأنهم « محلك سر » :

فالتعليم كان فى القرية .. أو على مرمى حجر منها ..

ثم كان العمل بها أيضا .. وهكذا يفسد « ماء المزاج» من طول الوقوف .. لأن صلاحه فى أن يجرى !

جـ- سوف يكون هناك حاملو « الدفاتر القديمة» الذين يذكرون الناس .. والطلاب .. بهفوات الشباب .. التى يتهامس بها المغرضون .. ثم لا يكون هناك احترام . لابد منه لنجاح عملية التدريس .

وقد كنت مع زميلى (الشيخ الأحمدى أبو النور) واقعين تحت تأثير غريزة حب الوطن .. عازفين عن العمل .. وخاصة فى الصعيد البعيد ..

ولكن الله تعالى أراد أن نغترب .. لنعود فى النهاية برصيد ضخم من الذكريات العزاز التى لم يبلها نصف قرن من الزمان ..

٢- كيف كانت العلاقة حميمة بين المدرس والطلاب .. هذه العلاقة التى نشأت .. واستوت على سوقها فى بضعة شهور (عام دراسى واحد)

فى الوقت الذى أقوم فيه اليوم بتدريس الثقافة الإسلامية فى جامعة اقليمية،

وكنت أخرج من « المدرج » لأجد واحدا من تلاميذى يشرح لزملائه حديثا .. هو فيه مدرس يحتاج إلى مدرس !

وبعدما كنت أعطيه الكتاب المقرر ليوزعه على زملائه مجانا ؟!

٣- وبعد نصف قرن تقريبا .. صار من بين الذين احتفلوا بى : أساتذة فى الجامعة.. وما زالت الصلة بيننا قائمة !

٤- مستوى الطلاب العلمى عندئذ .. وكيف يفوق اليوم نتاج بعض مدرسى اليوم .

٥- كيف اخترق بعض الطلاب يومئذ أسوار المعهد .. ليودعونى عند سلم القطار .. وكان من بركات هذا اللقاء ..أن سألنى راكب عن سر هذا الذى يرى .. وظهر أنه المرحوم «خليل حسين » عم الرئيس الراحل جمال عبدالناصر .. وكيف توطدت الصداقة بينى وبينه .. إلى الحد الذى أنجزت بواسطته حاجات لبعض الطلاب .

٦- وهى فى النهاية ذكرى « الوفاء » الذى نحتفظ بمجالاته قبل أن تذهب فى صحارى النسيان بددا .

٧- ثم إنها لفتة إلى الشاطئ الذى أبحرت منه .. ليعرف الأبناء :

من أين أبحرنا .. وأين نحن .. وكيف تخطينا العوائق ..

ومتى نصل إلى هدفنا ؟ .. أنقلها كوديعة غالية .. بلا تنميق ولا تزويق .

فى دســـوق

وتسلمت عملى فى «معهد دسوق الدينى» .. وكان القدر الأعلى يدبر أمرا.. فهيأ له أسبابه :

فمع وظيفة التدريس .. كنت أكلف بين الحين والآخر . بخطبة الجمعة فى مسجد« سيدى إبراهيم الدسوقى » .

وكان المسجد .. جامعا .. وكان فى نفس الوقت جامعة طلابها : أكثر من عشرة آلاف مصل ..

ومن كل محافظات مصر .. ومن كل المستويات ..

وعليك أن تصعد المنبر العالى .. لتخاطب هؤلاء جميعا ..

وأحسست عندئذ أن من تدبير الله تعالى ألا يتحقق أملى فى النقل إلى «المنوفية» .. ليضاف رصيد جديد من التلاميذ والأصدقاء إلى حسابى .. فى بنك الحياة !

وقد كنت أحس بعد خطبة الجمعة .. أن لى « حضورا مكثفا » بين الناس .. ما كان يحدث لو كنت أعمل فى محافظتى .

وجدت أن المرحوم الشيخ عبدالفتاح القاضى جاء إلى معهد دسوق « مفتشا ».

واستمع إلى فى درس من دروس التفسير ..

وجاء تقريره شاهدا لى .. أعتز به .

ثم مرت أعوام وأعوام .. ثم مثلت بين يديه وكان رئيسا للجنة اختيار المبعوثين إلى الخارج .

وبدأت أقرأ .. ففاجأنى بما يلى :

يا عمارة .. هل تقرآن الآن (قرآن . أم انجيل أم توراه) ؟!

فاعتذرت بأننى قادم من سفر طويل .. فكانت المفاجأة المذهلة فى قوله :

ألم تكن مدرسا بمعهد دسوق فى يوم ما .. قلت : بلى

قال :

لقد كنت رائعا وأنت تشرح (فإذا نقر فى الناقور :) واستخفنى السرور فقلت له :

بعد خمس قرن من الزمان .. وبعد سماعك لآلاف من أمثالى .. ما زلت تذكر حتى الآية التى كنت أشرحها ؟!!

لابد من أن تقرر نجاحى الآن .. فشهادتك تلك .. لا تذهبى فقط إلى إفريقيا.. وإنما آخر الدنيا .

من الشيخ القاضى
إلى الطالب القاضى

ذات يوم .. كنت فى زيارة للمرحوم « الشيخ عبدالعزيز عيسى » وكان مديرا عاما للمعاهد الدينية .

ولدى الباب ..رأيت مجموعة من شباب المدرسين .. يتجاذبون أطراف الحديث..

ووجدت نفسى أقف .. وفجأة .. مشدودا إلى نبرة صوت بين أصوت هؤلاء الشباب ..

ثم اقتربت من أحدهم .. وقلت له :

أنت القاضى ؟ .. قال : نعم !!

قلت له : ألا تعرفنى .. فقال :

آسف .. لم نلتق من قبل ؟!

فقلت له : ألم تكن طالبا فى معهد أسيوط ؟

قال : بلى ..

وأنت اليوم مدرس بالأزهر ؟!

اسمع : يا قاضى :

أنت الذى تغيرت :

لم يكن لك شارب ولا لحية ..

وكنت من قبل « معمما » .. ثم « تفندمت » !!

أما أنا فلم أتغير !!

فلماذا لا تعرفنى ؟

وسكت الأصدقاء .. مترقبين فى شوق نتيجة هذا الحوار المثير .

والذى حسمته بهذا السؤال :

من الذى علمك « الإنشاء» والنحو فى السنة الثانية الابتدائية ؟!

ولم أكمل الجملة حتى نطق باسمى .. وبالأحضان !!

إنها ملحمة الوفاء .. والصداقة الحميمة بين المدرسين والطلاب .. يوم كان الزمان زمانا .. والخلان خلانا

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص وصف حفلة التكريم التى قام بها معهد أسيوط الدينى
فى وداع الشيخ محمودة عمارة وزملائه *

فى مساء يوم الثلاثاء ٢٨ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ٩ من ديسمبر سنة ١٩٥٨م احتفل معهد أسيوط الدينى (بقاعة المحاضرات بالمعهد) بتكريم فضيلة الشيخ محمود محمد عمارة المدرس بالمعهد وذلك بمناسبة نقلة إلى معهد دسوق الدينى تقديرا لما قام به من جهورة مشكورة فى محيط المعهد من أوجه النشاط الثقافى المختلفة إذ نهض فضيلته بجمعيات (الخطابة - الصحافة - الشعر) حين اشرافه عليها وذلك مع القيام بواجبه الدراسى والتفانى فى سبيله بإخلاص وجد . أما فى المحيط الخارجى فقد كان صاحب القدح المعلمى فى إلقاء الكلمات والخطب فى الحفلات والمساجد ...الأمر الذى جعل عاطر ذكره كنفح الطيب حتى غدا علما من أعلام الفكر فى أسيوط . هذا وقد كا معه نخبة من الأساتذة أدوا للمعهد مجهودات جبارة ...

فلا غرو أن اجتمع المعهد الدينى بأسيوط (شيخه - مدرسوه - طلابه) وبعض وعاظ الأقليم وأفراده فى حفلة تكريم يظهرون شعورهم وما يكنونه من حب عميق ...

وقد ابتدأ الحفل بتلاوة لآى الذكر الحكيم ثم قدم الطالب عبدالوهاب الجهنى زميله الطالب عبد الحافظ عبد الله محمد الخطيب (كاتب هذه السطور) الذى عبر عن بعض شعوره نحو أستاذه فى كلمة ملخصها مرفق بهذا وتلاوه الطالب بكر محمد عبدالقادر فألقى كلمة ثم الطالب سعد مهنا فألقى قصيدة شعريه . وهما مرفقتان بهذا أيضا ...

*أثبت هذا الوصف .. طالب كان فى الرابعة الثانوية بالأزهر ..
كيف يعبر ؟ .. حتى « يعتبر» شباب اليوم !!

ثم نهض فضيلة الشيخ الحسينى واعظ أبنوب وألقى كلمة عبر فيها عن سروره بتكريم الشيخ واكمال الغرس الطيب الذى تعهده المحتفى به ثم حياه فى عبارات أدبية بديعة . وبعد ذلك قام الأستاذ محمد العوضى واعظ الجيش بأسيوط فأثنى فى ورقة على جهود الشيخ عمارة وتمنى لو حذا كل مدرسى وأزهرى حذوه وتعرض لآمل الأزهريين وأمانيهم ثم أظهر شعوره نحو معهد أسيوط الذى كان ذكره عاطرا دائما وشكر للمعهد قيامه بتكريم مدرسيه وأن هذا من صميم الدين واستدل على ذلك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رويه عن ربه (عبدى لن تشكرنى حتى تشكر من اجريت لك النعمة على يديه)

هذا وقد حرص فضيلة شيخ المعهد على اظهار عواطفه الجياشة فتقدم (بين عاصفة من التصفيق والهتاف) فحيا الحاضرين ثم نوه بالأعمال المجيدة التى اداها للمعهد ولأسيوط الأستاذ عمارة وزملاؤه وأشار بتفانيهم فى خدمة واجبهم نحو العلم والأدب والدين . ثم قال إن الأستاذ عمارة كان مثلا رائعا فى أداء الواجب والنفع العميم ولحرصى على ألا تمر لحظة دون أن ينتفع به المعهد كنت أمنـــع عنه الاجازات (مع أنها من حقه) علما بأننى كنت أرى أثر الأرهاق بادية على فضيلته .

ثم عرج فضيلة الشيخ الكبير على ناحية هامة فى حياة الأستاذ عمارة قائلا (جاءنى أحد الضباط الكبار بالجيش وقال أنا لم أصل ركعة فى حياتى فما ترى أن أفعله ؟

فقلت له أرى على وجهك سمات الإيمان (رجاء أن يلين قلبه ولذا لم أصرح بحكم الشرع له) وكان هذا فى يوم الثلاثاء الماضى وفى يوم الخميس أتصل بى وقال نريد أستاذا من أساتذة المعهد يخطب الجمعة بمسجد الجيش وأخذت الشيخ عمارة فلم يتوان ولم يعتذر بل قال - كعادته- لبيك لبيك .. وبعدها جاءنى الضابط المذكور يشكرنى ويتمنى أن أرسل له الشيخ عمارة كل جمعة وقال قد أصبحت من المصلين وأنا أقوم الآن بجميع التبرع لأنشاء مسجد كبير .

ثم قال شيخ المعهد أننى لراحة الشيخ عمارة فقط وقربه من بلده تركته يغادر المعهد ولولا ذلك لما فرطت فيه أبدا ولعلكم تعرفون أن نقله مضت عليه مدة كبيرة ثم قال فضيلته إن هذا الحفل الصغير فى مبناه الكبير فى معناه هو تعبير صادق عما يجيش فى القلب وهى دلالة على جزاء الاخلاص وصدق العزيمة ثم ختم كلمته الجامعة قائلا : إننى أتمنى لأبنائى (الذين كلما تقدم الزمن أزددت ثقة بهم)مستقبلا زاهرا وعظيما وأن أراهم أعلاما مزودين بالعلم كالشيخ عمارة وزملائه الأفاضل .. (ملخصا)

وهنا تطاولت الأعناق وأرهفت الحواس وشخصت الأبصار نحو الشيخ عمارة فنهض فضيلته ليدع للعاطفة ترد على ماقيل بأسلوبها الساحر البيان.. الذى خاطب القلوب مباشرة ثم نفذ إلى سويدائها آخذا بمجامعها ثم راح يقسو فى رفق عليها فأدماها فبكت على وقع الأوتار الشجية الحزينة ثم بدا للشيخ أن يوقظها أو يأسوها بخياله فأفاقت حينا وإذا بالحقيقة تقطع السبيل فتعود الأنات وتتعالى الزفرات التى يقذفها اللهيب النفسى !

وينشد القدر القاسى : وداعا .. وداعاً .. اذكرونى أيها الرفاق !!!

وبعد أن انتهى فضيلته من كلمته نهض شيخ المعهد فعانقه طويلا وتقابلت الدموع ومضت لحظة رهيبة من السكون لم تقطعها إلا نغمات الأنين ..!!

ثم صحا الحاضرون على صوت المقرى ونداء الله : لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ... الآيات

وبعد ختام الحفل وقف الشيخ عمارة وزملاؤه يصافحون الحاضرين فردا فردا والآن لازالت تلهب الحواس وتهيج الكوامن وتبعث الشجن من جديد أنشودة القدر القاسى : وداعا .. وداعا اذكرونى أيها الرفاق !!

عبدالحافظ عبدالله محمد الخطيب
رابعة ثانوى
معهد أسيوط

بالأمس القريب ابتسمت لنا الحياة فأشرقت علينا شمسها الساطعة لتبعث إلينا بهذه الزهرة الطيبة المباركة التى أتت وتؤتى أكلها كل حين باذن ربها . نشونا بنشوة السعادة تندفع فى عروقنا حينما سطع علينا هذا الصباح بنوره الوضاء فبدد ظلام النفوس الحالكة وأزال ما بها من كسل وخمول وشق لها طريقا فى الحياة تسلكه.. وهدفا تترسم خطاه . فسار الجميع يخوض معاركه فى طمأنينة فتدفقت دار الحياة إلى القلوب وسرت فى النفوس تباشير الفرح والسرور ولكن وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور فلقد ابتسمت لنا الحياة بالأمس وما ندرى أنها ابتسامة خداع وغرور منها وهى اليوم تعبث فى وجوهنا كالحة تريد أن تسلبنا هذه النعمة التى سنحتنا بها فى عهد قريب .. وهكذا الدنيا حال بعد حال فهى إذا حلت أوحلت وإذا حلت أوحلت وإذا سخت أوسخت . إيه يا دنيا لك الله فهو يتولى أمر القادرين.

سيدى الفاضل إذا كنا قد أصبحنا أمام الحقيقة المرة فبأى لسان نتحدث معك. أعن مآثرك . لا إننا عاجزون عن وصف ذلك فلندع التاريخ ياسيدى يعيد نفسه ليحدثنا عن هذه النفحات العاطرة وقد سجلها على صفحاته البيضاء بميداد من نور لم يكن فى أسيوط ولا فى معهد أسيوط بل فى كل مكان تشهد بذلك النملة فى جحرها والصخرة الصماء فى كهفها .

أنتحدث عن ذكرياتك الجميلة التى كان لها الشأن الأكبر فى تقويم نفوسنا والسير بها فى عالم السعداء .

أم نتحدث عما ألم بالقلوب الآن وفى هذه اللحظة من الهم والحزن المقيم - سيدى - إن الفراق لا يفصل بيننا فإن لك منزلة في القلوب لا تفصمها السنون ولو كنت عدت ولا الأعوام ولو تكاثرت .

فاذهب يا سيدى إلى دسوق وعد إلى القاهرة وبعد غد سنلتقى سويا على تحقيق الحلم الذى يداعب أذهان الجميع ..

لقد كنت قائدا ها هنا لجماعة الخطابة بالمعهد فى ظل شيخه الجليل والمستقبل

ينتظرك لتكون رائدا للمهمة الكبرى مهمة الأزهر والأزهريين للعمل على السير به فى ركب الحياة فى ظل شيخه أيضا الشيخ ثابت أو المعالى .

اذهب يا سيدى والأمل يحدوك وعناية الله ترعاك . أما نحن فلنا الله فهو نصير الضعيف ويارب وحدك أنت الرحيم .

الطالب

بكر محمد عبدالقادر

خامسة ثانوى

معهد أسيوط

للروح غذاء تستسفه مما يتصل بالدين والأدب .. وحاجتها إلى هذا الغذاء أشد منه حاجة الجسم إلى الطعام . لأن به تقويتها وتدرجها فى مصارج الكماليات..

وفى العام الماضى وعلى حين فترة من الركود !

إذا بالسفينة يقودها ربان محنك وإذا بالزهرة الذابلة تحييها قطرات الغيث الهاطلة . واذا بالركود يصبح عملاً منتجا ومثمرا . وإذا بالقمر يسطع فى سماء المعهد ليهدى الحبارى ...

فإذا اجتمعنا ياسيدى اليوم لتكريمكم فاننا نرد النعمة إلى مسديها والخير لواهبة ونكرم الأخلاق والعلم والعمل .. اننى أقول نودعك بل نكرمك حقا نستمد خيوط الأمل منكم ونسير على ضوء المصباح الذى أشعلتموه ومثلنا ومثلك كالكواكب والشمس فهى تستمد نورها من الشمس كانت هذه الشمس قاصية أو دانية وهذا هو الأمل وهذا هو العزاء وسنحيا على شعاعهما ونمضى فى ظلها وننشد: إذا ذهب عمارة فسيترك كلامنا وهو عمارة ...

سيدى : لقد كنا نريد أن يكون احتفالنا بتكريمكم أجمل من حيث المظهر والشكل ولكن القدر الواعى كان أكثر منا دراية وتوفيقا فأبى الا أن يكون وداعكم بنفس القلوب التى استقبلناكم بها . والقلوب أوسع من السموات والأرضين وأجمل من كل شئ فى الحياة وها هو ذا الحديث القدسى يضع أيدينا على هذا المعنى : ما وسعنى سمائى ولا أرضى .. الخ . نعم هذه القلوب التى جعلها الرسول صلى الله وعليه وسلم وهبط التجليات الألهية والفيوضات القدسية إن الله لا ينظر إلى صوركم ... إلخ .

سيدى لقد كنا نتمنى أن يكون وجودكم بيننا طويلا . ولكن ما الحيلة وما كل ما يتمنى المرء يدركة .. !! وليت أسيوط التى جعلتها أصلا يوم قلت : إذا كان فى الفرع خصائص الأصل فقد ورثت دسوق عن أسيوط السين والواو ليتها كانت كما نميتها ولكنها كانت فرعا فقد سبق أن ورثت أسيوط عن سلامون نفس السين والواو.

أيها الاستاذ الراحل سر إلى المعالى وامضى فى تجوالك عبر البلاد ترعاك عناية الله وتحدوك قلوبنا .. وثق أننا على عهدك ووعدك وعند حسن ظنك وأن هذا البذر الذى غرسته قد نما وترعرع وسيؤتى أكله طيبا شهياً .. وثق أننا سنذكرك دائما فى الغدو والآصال وكلما ذكر المخلصون وعندما نستنشق عبير الزهور .

وسنذكرك فى كل آن . فى ظل عاهل هذا المعهد الكبير الشيخ ثابت أبو المعالى الذى كان أول إنسان عرف فضلكم والسلام ،،

... عبدالحافظ عبدالله الخطيب

وداع

عجيب لهذا الدهر تطوى ستائره ∴ وتمضـي حثيثا جـنده وعـساكره
ويسلب منا العمر والعمر راحل ∴ كما أن هذا العيش يخـلق ناضـره
فيغدو إلينا والحياه مضيـئة ∴ فإذ هو ليـل قـد تمادت دياجره
وبعد اجتماع وائتلاف يسودنـا ∴ وعـز عـلى الأيام يشـرق زاهـره
وود وتحـنان ينـير قلـوبنا ∴ وحب لدى الإخوان تقوى أواصـره
إذا بالرحيل المر ينفث سمـه ∴ ويبعـد عـنا مـن تشـع جواهره
ولكنـه الدهر المفرق دائمـا ∴ وهيـهات يجـدى ماالرجال تحـاذره

اتقوى على بعد يطول زمـانه ∴ ولا تدر مـاذا قد تكـون مصائره
وقلبك يرضى أن يفارق معـهدا ∴ وجيشا من الطلاب تخشى بوادره
اتـتركنا والكـل أصبح باكيا ∴ تنـازعه الذكرى وتمضـي تـقاهره
اتترك روضا قد غرست بذوره ∴ وكنت له - رغم الصعاب - تباشره
فكم كنت تتعب لازدهار ثماره ∴ وكنـت كـراع للقـطيع تجـاوره
وكنت بهذا الليل تقطع غـوره ∴ وكنت بهـذا الثـمن دومـا تساهره
يعـز علينـا أن تفـارق دارنا ∴ وفيهـا فـؤادك قـد ترعرع خاطره
وكيف تكون النأي والنأى محرق ∴ وللمعـهد القـدسى كيـف تغـادره
فأسيـوط تبـكى وتضحك اختها ∴ دسـوق وتظـهر فـى الوجـوه بشائره
هنيـنا لهـا فاليـوم فيها عمارة ∴ يجـدد مجـدا والشـباب تسـايره

دعوه يجوب الأرض فهو مجاهد ∴ يسير إلى حيث المعالى تسامره

أمحمود قد جئنا نؤدى تحية ∴ تليق بنا والمرء ترعى مآثره

بمعذرة للشعر فالشعر يائس ∴ لبعدك عنه لا تجيش خواطره

فماذا يقول الشعر والشعر مفعم ∴ بأحزانه والقلب سدت بصائره

فسيرا فإن الله يجمع بيننا ∴ ويجعلنا للدين ردءا نؤازره

اهيب بكم يا قوم أن تتذكروا ∴ عهودا مضت فالعهد يمدح ذاكره

فلا تدعوا النسيان يطرق بابكم ∴ فتلقى عليكم فى الحياة أوامره

سعد مهنى سعد البرباوى

١-٩ معهد أسيوط الدينى

من مجالس الصلح

مدخل :

كان ذلك فى صيف -١٩٥٧-..

وكان المكان : قرية شمياطس مركز الشهداء منوفية .. ودعيت لإلقاء الكلمة الرئيسة فى هذا الحفل .. وكنت أعيش لحظة - البرزخ - بين حصولى على شهادة التخرج .. وبين تسلمى عملى كمدرس بالأزهر .

وكان على رأس الحاضرين " اللواء محمد لبيب نوحى " والذى كان آخر مدير للمنوفية .

وقلت

فى تربة من المشاعر الطبية .. رأيت زهره السلام تنمو وتزدهر ..

رأيت القلوب تتلاقى .. والأرواح تتعانق .. بعد أن ضرب الشيطان بينها بسور ليس له باب !

حدث هذا فى قرية « شمياطس » .. تلك القرية التى كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها غدا من كل مكان ..

رزقها المادى ..

ورزقها المعنوى ..

وفى سجوة الليل البهيهم ..ليل الغفلة .. تسلل الشيطان الرجيم . فنفث سمومه الناقعات بين صفوف الإخوه .. وإذا الرصاص ينطلق .. لينوب عن الكلمة الهادية الطبية ..

وهرع الطبيون .. وفى مقدمتهم مدير المنوفية « اللواء محمد لبيب نوحى »

ليدرءوا هذا الخطر .. ويردموا هذه الهوة السحيقة .. حتى تلتقى القلوب على كلمة سواء .. بعدما ذا قت من الفرقة والشتات . فى محاولة لعودة الشمل الجميع .. قوياً كما كان .. والذى يعود بها الصفاء كما عشناه من قبل .. عندما كنا كيانا واحدا راشدا:

مـزجت روحـك فـى روحـى

كمـا تمـزج الخـمـرة بالـمـاء الـزلال

فـإذا مـسك شـئ .. مسـنى

فـإذا أنـت أنا .. فـى كـل حـال !

وهو المعنى الملحوظ فى قول الآخر :

كتبت .. ولم أكـتب إلـيك وإنمـا

كتـبت إلـى روحـى بـغير خـطاب

وذلك أن الروح لا فرق بينها

وبيـن محبـيها .. بـفصـل خـطاب

إن ثوبك قد يمزق .. فتسارع إلى رفوه ..

فكيف إذا مزق الشيطان علاقة الأخوة .. كيف لا نسابق إلى رفوها ..

أتكون الثياب .. أعز علينا من الثواب ؟!

إن عاطفة الحب الجياشة .. ربطت بين الجماد وبين الإنسان :

[أحد : جبل يحبنا .. ونحبه ..]

أفتعجز عاطفة الحب أن تربط بين إنسان وإنسان .. نراغم بها الشيطان ؟!

إن القضية اليوم ليست قضية فردية :

رجل يقتل رجلا ..

ولكنها قضية الثأر .. تتناقلها الأجيال التى نحكم عليهما اليوم بالقتل غدا.. وكيف تكون الحياة من بعدهم ؟

اعفونا من رائحة البارود التى تفسد الجو .. ومكنونا من السلام نستروحه ..

لقد زرعتم الورود فى حقولكم هذه ..

ومن زرع الورد لا يضن برائحته على الناس ..

نهـــاية المطـــاف

اللهم : إن حسناتنا من عطائك .. وإن سيئاتنا من قضائك ..

فامح اللهم بعطائك ما كان من قضائك .. فإنك قلت وقولك الحق :

﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾

اللهم : إن رحمتك إيانا .. لا تنقصك ..

وإن معصيتنا لك .. لا تضرك.

فامنحنا بفضلك .. مالا ينقصك ..

واغفرلنا ما لا يضرك !!

اللهم اجعلنا ممن يؤمن بقضائك .. ويقنع بعطائك ..

ونجنا من كبر لانتقاد به للحق ..

ومن الحسد الذى يرفض النصح ..

ومن الغضب الذى يهتز به ميزان العدل..

ومن شهوة مانعة من العبادة .

اللهم إن عفوك ليستغرق الذنوب جميعا..

فكيف برضوانك ؟!

وإن رضوانك ليستغرق أمالنا جميعا..

فكيف بحبك ..

فاجعلنا ممن يحبك .. ويحب من يحبك .. حتى تكون أعيننا التى نبصر بها..
وأذاننا التى نسمع بها .. وقلوبنا التى نفقه بها.

الفهـــرس

فهرس الموضـــــــوعات	رقم الصفحة
مقـدمـــة	أ - د
- من مفكرتى	١
- أخلاق القرية	٥
- البئر والنهر	٧
- الأصدقاء الطيبون	٩
- من ثمرات العزلة	١٠
- عندما يستنسر البغاث	١٥
- نبكى على الرجال ولا نبكى على الأطلال	٢٠
- الأصدقاء الألداء	٢٤
- درس من التاريخ	٢٩
- السلاح القاتل	٣٢
- من أسرار البلاء	٣٣
- العارف بالله غريب فى وطنه	٣٦
- البلاء فى الجو الإيمانى	٣٩
- من علامات القبول	٤١
- عندما يهون البلاء	٤٢
- المسلم ، وفن التعامل مع الأزمات	٤٧
- من معانى القوة	٥٢
- كيف نتعامل مع الأحداث	٥٥
- رؤية الرزاق قبل رؤية الأرزاق	٥٩
- نعيب زماننا والعيب فينا	٦٢
- الراغبون فى الانتحار	٦٤

تابع فهرس الموضـــوعات	رقم الصفحة
- من سلبية التواكل إلى إيجابية التوكل	٧٢
- الأعرابية تعلمنا فن التوكل	٨٠
- من رواد مدرسة التحدى	٨١
- هؤلاء الذين يسفحون دموع التماسيح	٨٧
- علماء آخر الزمن	٨٩
- فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل	٩١
- ٩ ، ١٠ يونيه	٩٢
- مخلص واحد يكفى	٩٣
- صورة من تاريخنا	٩٦
- قدر العلماء	٩٨
- لحم العلماء مر	٩٩
- أخلاق السيادة وحقيقة العبادة	١٠٢
- همم معلقة بالثريا	١٠٥
- أهمية الحاشية	١١١
- من هو السيد ؟	١١٤
- قيمة النجدة	١١٩
- قيمة الستر فى قصور الحكام	١٢٥
- زكاة الأخوة	١٣٠
- الوفاء للأموات	١٣٥
- همة العلماء	١٣٧
- الحاسد بين شقى الرحى	١٤٠
- نفثة مصدور	١٤٣

تابع فهرس الموضوعات	رقم الصفحة
- مخالطة الناس	١٤٧
- المسلم .. والحس الاجتماعى	١٤٩
- المحافظ الحافظ لحدود الله	١٥٠
- شجاعة الاعتراف بالحق	١٥٣
- شجاعة أدبية	١٥٦
- المؤمن هو الأقوى	١٥٨
- ويعيد التاريخ نفسه	١٦٠
- تجوع الحرة .. ولا تأكل بثدييها	١٦٣
- القرب حجاب	١٦٥
- قدر الدعاة	١٦٦
- وزير وإن ترك المكتب الأنيق	١٦٧
- وجاء الفرج	١٧٢
- نصف الحق يساوى كل الباطل	١٧٥
- من مواقف المؤيدين	١٨٠
- الضعف الشريف يهزم القوة السافلة	١٨٢
- ماذا بعد الانتخاب ؟	١٨٦
- تمام النعمة	١٨٩
- تلاميذ مع إيقاف التنفيذ	١٩١
- إذا تصدر الحدث	١٩٣
- غرباء فى أوطانهم	١٩٦
- المؤمن فى ذمة الله	١٩٨

تابع فهرس الموضـــــوعات	رقم الصفحة
- أريد حياته ويريد قتلى	٢٠١
- القمة المدببة	٢٠٦
- قيمة الرضا	٢١١
- العمل الإسلامى إلى أين ؟	٢١٧
- خواطر انتخابية	٢١٩
- عبرة للمرشحين	٢٢٣
- ذكريات أسيوط	٢٢٥
- فى دسوق	٢٢٩
- ملحض وصف حفلة تكريم أسيوط	٢٣٣
- وداع	٢٤٠
- من مجالس الصلح	٢٤٢
- نهاية المطاف	٢٤٥
- فهرس الموضوعات	٢٤٦-٢٤٩